الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثاني

تأليف

أبو حيان التوحيدي

تحقيق

أحمد أمين وأحمد الزين

الكتاب: الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الثاني

الكاتب: أبو حيان التوحيدي

تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التوحيدي ، أبو حيان

الإمتاع والمؤانسة.. الجزء الثاني / أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٥٦ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان　　　　رقم الإيداع : ٤٦٦٧ / ٢٠٢٠

الإمتاع والمؤانسة

الجزء الثاني

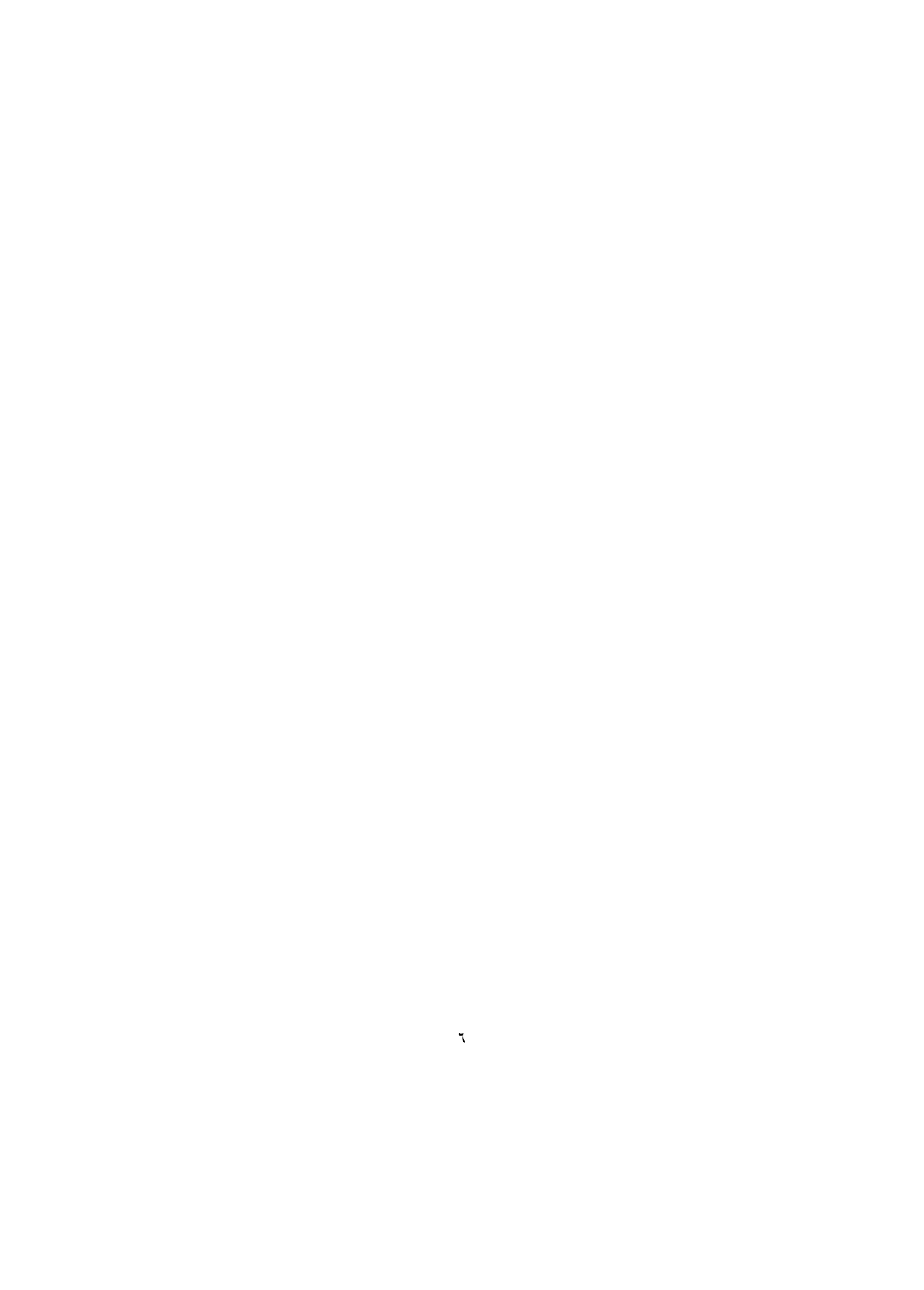




تنبيهات

كان اعتمادنا في الطبع على النسخة الكاملة الوحيدة المشار إليها في الحواشي بحرف أ، وهناك قطع قليلة غير مرتبة الصفحات ولا كاملة الأجزاء تبلغ خمسي الكتاب تقريبًا، ومن ثم جعلناها نسخة إضافية، وقد نجد فيها بعض الزيادات فنضعه بين مربعين من غير تنبيه عليه. فليُلاحَظ ذلك.

أحمد أمين



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الشيخ – أطال الله يدك في الخيرات، وزاد في همتك رغبةً في اصطناع المَكرُمات، وأجراك على أحسن العادات في تقديم طلاب العلم وأهل البيوتات – قد فرغتُ في الجزء الأول على ما رسمتَ في القيام به، وشرَّفتَني بالخوض فيه، وسردتُ في حواشيه أعيانَ الأحاديث التي خدمْتُ بها مجلس الوزير، ولم آلُ جُهْدًا في روايتها وتقويمها[1] ولمْ[2] أَحْتَجْ إلى تعمية شيءٍ منها، بل زَبْرَجْتُ كثيرًا منها بناصع اللفظ، مع شرح الغامض، وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص. وحملتُه إليك على يد «فائقٍ» الغلام، وأنا حريصٌ على أن أُتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله تعالى.

وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد، كما سألتك أولًا على طريق الاقتراح، أن تكون هذه الرسالة مصونةً عن عيون الحاسدين العيَّابين، بعيدةً عن تناوُل أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يَسلَم، ولا كل سامعٍ يُنْصف، ولا كل متوسِّطٍ يُصْلح، ولا كل قادمٍ يُفْسَح له في المجلس عند القدوم.

والبلية مضاعَفةٌ من جهة النُّظَراء في الصناعة، وللحسد ثَورانٌ في نفوس هذه الجماعة. وقلَّ من يَجْهد جُهْده في التقرب إلى رئيسٍ أو وزير، إلا جَدَّ في إبعاده من مَرامِه كل صغير وكبير، وهذا لأن الزمان قد

استحال عن المعهود، وجفا عن القيام بوظائف الديانات، وعاداتِ أهل المروءات، لأمورٍ شرحها يطول. وقد كان الناس يتقلَّبون في بسيط[3] الشمس (أعني الدِّين) فغرُبت عنهم، فعاشوا بنور القمر (أعني المروءة) فأفل دونهم، فبقوا في ظلمات البر والبحر (أعني الجهل وقلة الحياء)، فلا جَرمَ أعضلَ الداء، وأشكل الدواء، وغلبت الحيرة، وفُقِد المرشد، وقلَّ المُسترشِد. والله المستعان.

وأرجع إلى ما هو الغرض من نسخ ما تقدم في الجزء الأول.

هوامش

(١) هذه الكلمة مطموسة في «أ».

(٢) في «أ»: ولو لم أحتج. وقوله «لو» زيادة من الناسخ.

(٣) كذا ورد هذا اللفظ في كلا الأصلين. ولعل المراد ببسيط الشمس ضوءُها المنبسط.

الليلة السابعة عشرة

فلما عدتُ إلى المجلس قال: ما تحفظ في تَفْعال وتِفْعال، فقد اشتبها؟ وفزِعتُ إلى ابن عُبيد الكاتب فلم يكن عنده مقنَع، وألقيتُ على مِسكويْه فلم يكن له فيها مطْلع، وهذا دليلٌ على دُثور الأدب، وبَوار العلم، والإعراض عن الكدْح في طلبه.

فقلتُ: قال شيخنا أبو سعيد السيرافي الإمام – نضَّر الله وجهه: المصادر كلها على تَفْعَالٍ بفتح التاء، وإنما تجيء تِفْعالٌ في الأسماء وليس بالكثير. قال: وذكر بعضُ أهل اللغة منها ستة عشر اسمًا لا يوجد غيرُها. قال: هاتها.

قلت: منها التِّبْيان والتِّلقاء، ومرَّ تِهْواءٌ من الليل، وتِبْراك[1] وتِعْشار[2] وتِرْباع وهي مواضع، وتِمْساح للدابة المعروفة، والتمساح الرجل الكذاب أيضًا.

وتِجْفاف، وتِمْثال، وتِمْراد[3] بيت الحَمَام، وتِلْفاق وهو ثوبان يُلْفقان، وتِلْقام: سريع اللَّقْم.

ويقال: أتت الناقةُ على تِضْرابها، أي على الوقت الذي ضرَبها الفحلُ فيه، وتِضْراب كثيرُ الضرب، [وتِقْصار] [4] وهي المِخْنَقة، وتِنْبال وهو القصير.

قال: هذا حسَنٌ، فما تقول في تَذْكار، فإن الخوض في هذا المثال إنما كان من أجل هذا الحرف، فإن أصحابنا كانوا في مجلس الشراب فاختلفوا فيه؟ فقلتُ: هذا مصدرٌ، وهو مفتوح.

ثم قال: اجمع لي حروفًا نظائر لهذا من اللغة، واشرحْ[٥] ما نَدَر منها وعَرَض الشك لكثير من الناس فيها.

فقلتُ: السمعَ والطاعةَ مع الشرف بالخدمة.

وقال أيضًا: حدِّثني عن شيء هو أهم من هذا لي وأخطر على بالي، إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولًا ومذهبًا لا عهد لي [به]، [٦] وكنايةً عما لا أَحُقُّه، وإشارةً إلى ما لا يتوضَّح شيءٌ منه؛ يذكر الحروف ويذكر النُّقَط، ويزعم أن الباء لم تُنْقَط من تحت واحدةً إلا بسبب، والتاءَ لم تُنْقط من فوقُ اثنتين إلا لعلة، والألفَ لم تُعَرَّ إلا لغَرَض، وأشباه هذا. وأشهدُ[٧] منه في عَرْض ذلك دعوى يتعاظم بها ويتنفَّجُ[٨] بذكرها، فما حديثُه؟ وما شأنُه؟ وما دُخْلَتُه؟ وما خَبَرُه؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه، وتُكْثر عنده، وتُوَرِّق له، ولك معه نوادر مضحِكة، وبَوادر معجِبة، ومن طالت عِشرتُه لإنسانٍ صدقتْ خبرتُه به، وانكشف أمره له، وأمكنَ اطِّلاعُه على مستكِنِّ رأيه، وخافي مذهبه، وعويص طريقته.

فقلتُ: أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديمًا وحديثًا بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأُخُوَّة[٩] القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دع هذا وصِفْه لي. قلتُ: هناك ذكاءٌ غالبٌ، وذِهنٌ وقَّادٌ، ويَقَظةٌ حاضرة، وسَوانح متناصرة،[١٠] ومتَّسَعٌ في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماعٍ للمقالات، وتبصُّرٍ في الآراء والديانات، وتصرُّفٍ في كل فنٍ: إما بالشَّدْو[١١] المُوهِم، وإما بالتبصر المُفْهِم، وإما بالتَّناهي المُفْحِم. فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟ قلتُ: لا يُنْسب إلى شيء، ولا يُعْرف برَهْط، لجَيَشانه بكل شيء، وغَلَيانه[١٢] في كل باب، ولاختلاف ما يبدو من بَسْطة تِبْيانه، وسطوته بلسانه. [١٣] وقد أقام بالبصرة زمانًا طويلًا، وصادف بها جماعةً جامعةً لأصناف العلم وأنواع الصناعة، منهم أبو سليمان محمد بن مَعْشر البِيسْتِيُّ[١٤] ويُعرف بالمَقْدِسيِّ، وأبو الحسن علي بن هارون الزَّنْجانيُّ،[١٥] وأبو أحمد المِهْرَجاني،[١٦] والعوْفيُّ، وغيرهم، فصحبهم وخدمهم. وكانت هذه العصابة قد تآلفتْ[١٧] بالعِشرة، وتَصافتْ بالصداقة، واجتمعتْ على القُدْس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قرَّبوا به [الطريق] إلى الفوز برضوان الله، والمصير[١٨] إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنِّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، [وذلك] لأنها حاويةٌ للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفةُ اليونانية والشريعةُ العربية فقد حصل الكمال، وصنفوا خمسين رسالةً في جميع أجزاء الفلسفة: عِلميِّها وعَمليِّها، وأفردوا لها فِهرستًا وسمَّوها رسائل إخوان الصَّفاء وخلَّان الوفاء، وكتموا أسماءهم، وبثُّوها في الوراقين، ولقَّنوها للناس، وادَّعَوا أنهم

ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجهِ الله عز وجل وطلبَ رضوانه، ليخلِّصوا الناسَ من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائدِ الخبيثة التي تضر أصحابَها، والأفعال المذمومة التي يَشقى بها أهلها. وحَشَوْا هذه الرسائل بالكلم الدينية، والأمثال الشرعية، والحروف[١٩] المحتمَلة، والطرق الموهِمة.

فقال: هل رأيت هذه الرسائل؟ قلت: قد رأيت جملةً منها، وهي مبثوثةٌ من كل فنٍّ نُتَفًا بلا إشباعٍ ولا كفاية، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات، وقد غرَق الصوابُ فيها لغلبة الخطأ عليها.

وحملتُ عدةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السِّجستاني (محمد بن بهرام) [٢٠] وعرضتُها عليه ونظر فيها أيامًا واختبرها طويلًا، ثم ردها عليَّ وقال: تعبوا وما أغنَوا، ونَصِبوا وما أَجْدَوا، وحامُوا وما وَرَدوا، وغَنَّوا وما أَطْرَبوا، ونسجوا فهلهلوا، ومَشَطوا ففَلفلوا،[٢١] ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يُستطاع، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسُّوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمِجَسْطِيِّ والمقادير وآثار الطبيعة، والموسيقى التي هي معرفة النَّغَم والإيقاعات والنَّقَرات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات؛ في الشريعة، وأن يَضمُّوا[٢٢] الشريعة للفلسفة.

وهذا مرامٌ دونه حَدَد. [٢٣] وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدَّ أنيابًا، وأحضر أسبابًا، وأعظم أقدارًا، وأرفع أخطارًا، وأوسع قوًى،

وأوثق عُرًى، فلم يتم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أمَّلوه. وحصلوا على لُوثاتٍ قبيحة، ولَطَخاتٍ فاضحة، وألقابٍ موحشة، وعواقب مخزية، وأوزارٍ مُثقِلة.

فقال له البخاري أبو العباس: ولِمَ ذلك أيها الشيخ؟

قال: إن الشريعة مأخوذةٌ عن الله — عز وجل — بوساطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وبابِ المناجاة، وشهادةِ الآيات، وظهورِ المعجزات، على ما يوجبه العقل تارةً، ويجوِّزه تارةً، لمصالح عامةٍ متقنة، ومراشد تامةٍ مبيَّنة، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه، والغوص فيه، ولا بدَّ من التسليم للداعي إليه، والمنبِّه عليه. وهناك يسقط «لِمَ»، ويبطُل «كيف»، ويزول «هلَّا»، ويذهب «لوْ» و«ليتَ» في الرِّيح، لأن هذه المواد عنها محسومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودةٌ، وارتياب المرتابين فيها ضارٌّ، وسكونَ الساكنين إليها نافع. وجملتُها مشتملةٌ على الخير، وتفصيلُها موصولٌ بها على حُسن التقبُّل، وهي متداوَلة بين متعلِّق بظاهرٍ مكشوف، ومُحْتَجٍّ بتأويلٍ معروفٍ، وناصرٍ باللغة الشائعة، وحامٍ بالجدل المبين، وذابٍّ بالعمل الصالح، وضاربٍ للمثل السائر، وراجعٍ إلى البرهان الواضح، ومتفقِّهٍ في الحلال والحرام، ومستنِدٍ إلى الأثر والخبر المشهورَين بين أهل الملة، وراجع إلى اتفاق الأمة.

وأساسُها على الورع والتقوى، ومنتهاها إلى العبادة وطلب الزُّلْفَى.

ليس فيها حديث المُنجِّم في تأثيرات الكواكب، وحركات الأفلاك، ومقادير الأجرام، ومطالع الطوالع، ومغارب الغوارب.

ولا حديثُ تشاؤمِها وتيامنِها، وهبوطِها وصعودها، ونحسها وسعدها، وظهورها واسْتِسْرارها، ورجوعها واستقامتها، وتربيعها وتثليثها، وتسديسها ومقارنتها.

ولا حديثُ صاحب الطبيعة الناظر في آثارها، وأشكال الأُسْطُقُسَّات بثبوتها وافتراقها، وتصريفها في الأقاليم والمعادن والأبدان، وما يتعلق بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وما الفاعل وما المنفعل منها، وكيف تمازُجها وتزاوُجُها، وكيف تنافُرُها وتَسايُرُها، وإلى أين تسري قُواها، وعلى أي شيء يقف منتهاها.

ولا فيها حديثُ المهندس الباحث عن مقادير الأشياء ونُقَطِها وخطوطها وسطوحها وأجسامها وأضلاعها وزواياها ومقاطعها، وما الكرة، وما الدائرة، وما المستقيم، وما المنحنى.

ولا فيها حديثُ المنطقي الباحث عن مراتب الأقوال، ومَناسِب الأسماء والحروف والأفعال، وكيف ارتباط بعضها ببعض على موضوعِ رجل من يونان حتى يَصحَّ بزعمه الصدق، ويُنبذ الكذب.

وصاحبُ المنطق يرى أن الطبيب والمنجِّم والمهندس وكل من فاهَ بلفظٍ وأمَّ غرضًا؛ فقراء إليه، محتاجون إلى ما في يديه.

قال: فعلى هذا كيف يسُوغ لإخوان الصفاء أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوةً تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة؟

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضًا لهم مآخذ من هذه الأغراض، كصاحب العزيمة وصاحب الطِّلَّسْم وعابر الرؤيا ومدَّعي السحر وصاحب الكيمياء ومستعمِل الوهم.

قال: ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكان الله تعالى نبه عليها، وكان صاحب الشريعة يقوِّم شريعته بها، ويكمِّلها باستعمالها، ويتلافى نقصَها بهذه الزيادة التي يجدها في غيرها، أو يحضُّ المتفلسفين على إيضاحها [بها]، ويتقدم إليهم بإتمامها، ويَفْرض عليهم القيام بكل ما يُذَبُّ به عنها حسب طاقتهم فيها، ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وَكَله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه، بل نهى عن الخوض في هذه الأشياء، وكرَّه إلى الناس ذكرها، وتوعَّدهم عليها، وقال: من أتى عرَّافًا أو طارقًا[٢٤] أو حازيًا[٢٥] أو كاهنًا أو منجِّمًا يطلب غيب الله منه فقد حارب الله، ومن حارب الله حُرِب، ومن غالبَه غُلب. حتى قال: «لو أن الله حَبس عن الناس القَطْر سبع سنين ثم أرسله لأصبحتْ طائفةٌ به كافرين.»

ويقولون: مُطِرنا بنَوْء المِجْدَح. فهذا كما ترى. والمجدح: الدَّبَران.

ثم قال: ولقد اختلفت الأمة ضروبًا من الاختلاف في الأصول والفروع، وتنازعوا فيها فنونًا من التنازع في الواضح والمُشكِل من الأحكام، والحلالِ والحرام، والتفسير والتأويل، والعِيان والخبر، والعادة

والاصطلاح. فما فزعوا في شيء من ذلك إلى منجِّمٍ ولا طبيب ولا منطقيٍّ ولا مهندسٍ ولا موسيقيٍّ ولا صاحب عزيمةٍ وشَعْبَذة وسِحرٍ وكيمياء، لأن الله تعالى تمَّم الدين بنبيهﷺ، ولم يُحْوِجْه بعد البيان الوارد بالوَحْي إلى بيانٍ موضوعٍ بالرأي.

قال: وكما لم نجد في هذه الأمة من يَفْزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها، فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهي النصارى، وكذلك المجوس.

قال: ومما يَزيدك وضوحًا ويُريك عجبًا أن الأمة اختلفت في آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافًا فيها وفِرقًا، كالمرجئة والمعتزلة والشيعة والسُّنِّيَّة والخوارج، فما فزعتْ طائفةٌ من هذه الطوائف إلى الفلاسفة، ولا حَقَّقت مقالتها بشواهدهم وشهادتهم، ولا اشتغلَتْ بطريقتهم، ولا وجدتْ عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها.

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيام الصدر الأول إلى يومنا هذا، لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة فاستنصروهم، ولا قالوا لهم: أعينونا بما عندكم، واشهدوا لنا أو علينا بما قِبَلكم.

قال: فأين الدين من الفلسفة؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل؟

فإذ أَدَلُّوا بالعقل فالعقل موهبةٌ من الله جلَّ وعزَّ لكل عبد، ولكن بقدْر ما يدرك به ما يعلوه، كما لا يخفى به عليه ما يتلوه. وليس كذلك الوحي، فإنه على نوره المنتشر، وبيانه الميسَّر.

قال: وبالجملة، النبيُّ فوق الفيلسوف، والفيلسوف دون النبي، وعلى الفيلسوف أن يتَّبع النبي، وليس على النبي أن يتَّبع الفيلسوف، لأن النبي مبعوث، والفيلسوف مبعوثٌ إليه.

قال: ولو كان العقل يُكْتفى به لم يكن للوحي فائدةٌ ولا غَناءٌ. على أن منازل الناس متفاوتةٌ في العقل، وأنصباؤهم مختلفةٌ فيه، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع، وليس العقل بأسْره لواحدٍ منا، وإنما هو لجميع الناس؟ فإن قال قائل بالعبث والجهل: كل عاقل موكولٌ إلى قدر عقله، وليس عليه أن يستفيد الزيادة من غيره، لأنه مكفيٌّ به، وغير مطالَبٍ بما زاد عليه.

قيل له: كفاك تماديًا في هذا الرأي أنه ليس لك فيه موافق، ولا عليه مطابق، ولو استقل إنسانٌ واحدٌ بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقل أيضًا بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، ولكان وحده يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجنسه، وهذا قولٌ مرذول ورأيٌ مخذول.

قال البخاري: وقد اختلفتْ أيضًا درجات النبوة بالوحي، وإذا ساغ هذا الاختلاف في الوحي ولم يكن ذلك ثالمًا له، ساغ أيضًا في العقل ولم يكن مؤثرًا فيه.

فقال: يا هذا، اختلاف درجات أصحاب الوحي لم يخرجهم عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحي، وخصهم بالمناجاة، واجتباهم للرسالة، وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبوة، وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان في الناظرين بالعقول المختلفة، لأنهم على بعدٍ من الثقة والطمأنينة إلا في الشيء القليل والنَّزْر اليسير، وعَوار هذا الكلام ظاهر، وخَطَل هذا المتكلم بَيِّن.

قال الوزير: أفما سمع شيئًا من هذا المقدسي؟ قلت: بلى قد ألقيت إليه هذا وما أشبهه بالزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، في أوقات كثيرة بحضرة حمزة الورَّاق في الوراقين، فسكتُ، وما رآني أهلًا للجواب. لكن الحريري غلام ابن طَرَّارة هيَّجه يومًا في الوراقين بمثل هذا الكلام، فاندفع فقال: الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يُطِبُّون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرضٌ أصلًا، فبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرقٌ ظاهر وأمرٌ مكشوف، لأن غاية مدبِّر المريض أن ينتقل به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعًا، والطبع قابلًا، والطبيب ناصحًا. وغاية مدبر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب الفضائل، وفرَّغه

لها، وعرَّضه لاقتنائها. وصاحب هذه الحال فائزٌ بالسعادة العظمى، ومتبوِّئٌ الدرجة العليا. وقد صار مستحقًّا للحياة الإلهية، والحياة الإلهية من الخلود والديمومة والسرمدية.

فإنْ كَسب من يبرأ من المرض بطب صاحبه الفضائل أيضًا، فليست[٢٦] تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل، لأن إحداهما تقليدية والأخرى برهانية، وهذه مظنونةٌ وهذه مستيقَنة،[٢٧] وهذه روحانية وهذه جسمية، وهذه دهرية وهذه زمانية.

وقال أيضًا: إنما جمعنا بين الفلسفة والشريعة لأن الفلسفة معترِفةٌ بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدةً لها. وإنما جمعنا أيضًا بينهما لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة، والعامة قوامها بالخاصة كما أن الخاصة تمامها بالعامَّة، وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى، لأنها كالظِّهارة التي لا بد لها من البِطانة، وكالبطانة التي لا بدَّ لها من الظهارة.

فقال له الحريري: أما قولك طب المرضى وطب الأصحاء وما نَسَّقتَ عليه كلامك فمَثَلٌ لا يعبر به غيرك[٢٨] ومن كان في مُشْكل، لأن الطبيب عندنا الحاذق في طبه هو الذي يجمع بين الأمرين، أعني أنه يبرئ المريض من مرضه، ويحفظ الصحيح على صحته. فأما أن يكون ها هنا طبيبان يعالج أحدهما الصحيح والآخر يعالج المريض، فهذا ما لم نعهده نحن ولا أنت، وهو شيءٌ خارجٌ عن العادة، فمثَلك مردودٌ عليك، وتشنيعك فاضحٌ لك، وكل أحد يعلم أن التدبير في حفظ الصحة ودفع

المرض – وإن كان بينهما فرق – واحد، فالطب يجمعهما والطبيب الواحد يقوم بهما وبشرائطهما.

وأما قولك في الفصل الثاني: إن إحدى الفضيلتين تقليدية والأخرى برهانية؛ فكلامٌ مدخول لأنك غلطت على نفسك، ألا تعلم أن البرهانية هي الواردة بالوحي، الناظمة للرشد، الداعية إلى الخير، الواعدة بحسن المآب، وأن التقليدية هي المأخوذة من المقدمة والنتيجة، والدعوى التي يُرْجع فيها إلى من ليس بحجة؟ وإنما هو رجلٌ قال شيئًا فوافقه آخر وخالفه آخر، فلا الموافق له يرجع إلى الوحي، ولا المخالف له يستند إلى حق. والعجب أنك جعلت الشريعة من باب الظن وهي بالوحي، وجعلت الفلسفة من باب اليقين وهي من الرأي.

وأما قولك: هذه رُوحانية (تعني الفلسفة) وهذه جسمية (تعني الشريعة)، فزخرفة لا تستحق الجواب، ولمثل هذا فليعمل المزخرفون. على أنا لو قلنا: بل الشريعة هي الروحانية لأنها صوت الوحي والوحي من الله عز وجل، والفلسفة هي الجسمية لأنها برزت من جهة رجل باعتبار الأجسام والأعراض، وما هذا شأنه فهو بالجسم أشبه، وعن لطف الروح أبعد؛ [لما أبعدنا].

وأما قولُك: الفلسفة خاصةٌ والشريعة عامة، فكلام ساقط لا نور عليه، لأنك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم (وهم العامة) والفلسفة ينتحلها قوم (وهم الخاصة)؛ فلمَ جمعتم رسائل إخوان الصفاء ودعوتم

الناس إلى الشريعة وهي لا تلزم إلا للعامة، ولم تقولوا للناس: من أحب أن يكون من العامة فليتحلَّ بالشريعة؟ فقد ناقضتم، لأنكم حشوتم مقالتكم بآياتٍ من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلولٌ عليها بالشريعة، ثم الشريعة مدلولٌ عليها بالمعرفة، ثم ها أنت تذكر أن هذه للخاصة وتلك للعامة، فلِمَ جمعتم بين مفترقَين، ومزَّقتم بين مجتمعَين؟ هذا والله الجهل المبين، والخُرْق المشين.

وأما قولك: إنا[٢٩] جمعنا بين الفلسفة والشريعة[٣٠] لأن الفلسفة معترفةٌ بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدةً للفلسفة؛ فهذه مناقضة أخرى،[٣١] وإني أظن أن حسك كليل، وعقلك عليل، لأنك قد أوضحت عذر أصحاب الشريعة إذ جحدوا الفلسفة، وذلك أن الشريعة لا تذكرها، ولا تحضُّ على الدَّيْنُونة[٣٢] بها. ومع ذلك فليس لهم علمٌ بأن الفلسفة قد حثَّت على قبول الشريعة، ونهت عن مخالفتها، وسمَّتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم.[٣٣]

ثم قال الحريري: حدِّثني أيها الشيخ على أي شريعةٍ دلَّت الفلسفة؛ أعلى اليهودية أم على النصرانية أم على المجوسية أم على الإسلام أم ما عليه الصابئون؟ فإن ها هنا من يتفلسف وهو نصراني كابن زُرْعة وابن الخمَّار وأمثالهما، وها هنا من يتفلسف وهو يهودي كأبي الخير بن يعيش، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم كأبي سليمان والنُّوشجانيِّ وغيرهما، أفتقول إن الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطوائف أن[٣٤] تدين بذلك الدين الذي نشأت عليه؟ ودَعْ هذا ليُخاطَبَ غيرُك، فإنك من

أهل الإسلام بالهَدْي والجِبِلَّة والمنشأ والوراثة، فما بالنا لا نرى واحدًا منكم يقوم بأركان الدين، ويتقيد بالكتاب والسنة، يراعي معالم الفريضة ووظائفَ النافلة؟ وأين كان الصدر الأول من الفلسفة، أعني الصحابة؟ وأين كان التابعون منها؟ ولمَ خفِي هذا الأمر العظيم، مع[٣٥] ما فيه من الفوز والنعيم، على الجماعة الأولى والثانية والثالثة إلى يومنا هذا، وفيهم الفقهاء والزهَّاد والعبَّاد وأصحاب الورع والتُّقَى والناظرون في الدقيق ودقيق الدقيق وكلٌّ ما عاد بخيرٍ عاجل وثوابٍ آجل؟ هيهات[٣٦] لقد أسررتم الحَسْو في الارتغاء،[٣٧] واستقيتم بلا دلو ولا رشاء، ودلَلتم على فُسولتكم وضعف مُنَّتكم، وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله وتضعوا ما رفعه الله، والله لا يُغالَب بل هو غالبٌ على أمره فعَّال لما يريد.

قد حاول هذا الكيد خلقٌ في القديم والحديث، فنكصوا على أعقابهم خائبين، وكُبُّوا لوجوههم خاسرين، منهم أبو زيد البَلْخي فإنه ادَّعى أن الفلسفة مُقَاوِدَة[٣٨] للشريعة والشريعةَ مشاكلة للفلسفة، وأن إحداهما أُمٌّ والأخرى ظِئْر، وأظهر مذهب الزَّيْدِيَّة، وانقاد لأمير خراسان الذي كتب له أن يعمل في نشر الفلسفة بشفاعة الشريعة، ويدعو الناسَ إليها باللُّطْف والشفقة والرَّغبة، فشتَّت الله كلمتَه، وقوَّض دِعامته، وحال بينه وبين إرادته، ووَكَله إلى حَوْله وقوته، فلم يتمَّ له من ذلك شيء.

وكذلك رام[٣٩] أبو تمام النيسابوري، وخدم الطائفةَ المعروفة بالشِّيعيَّة، ولجأ إلى مطرِّف بن محمد وزير مرداويج[٤٠] الجِيلي ليكون له به قوة، وينطق بما في نفسه من هذه الجملة، فما زادته إلا صغرًا في

قدْره، ومهانةً في نفسه، وتواريًا في بيته. وهذا بعينه قَصَد العامريُّ فما زال مطرودًا من صُقْع إلى صقع يُنْذَر دمُه ويُرْتَصَد قتلُه، فمرةً يتحصَّن بفناء ابن العميد، ومرةً يلجأ إلى صاحب الجيش بنَيسابور، ومرةً يتقرب إلى العامة بكُتبٍ يصنفها في نصرة الإسلام، وهو على ذلك يُتَّهم ويُقْرف بالإلحاد، وبقِدم العالَم والكلام في الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان، وما أشبه هذا من ضروب الهذيان التي ما أنزل الله بها كتابَه، ولا دعا إليها رسولُه، ولا أفاضتْ فيها أمتُه.

ومع ذلك يُناغِي صاحبَ كل بدعة، ويجلس إليه كلٌ متَّهم، ويلقي كلامه إلى كل من ادعى باطنًا للظاهر وظاهرًا للباطن.

وما عندي أن الأئمة الذين[٤١] يأخذ عنهم ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس وسقراط وأفلاطون رهطِ الكفر، ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القدَّاحين في الإسلام، الساترين على أنفسهم ما هم فيه من التُّهم، وهذا بعينه دبَّره الهَجَرِيُّون[٤٢] بالأمس، وبهذا دندن[٤٣] الناجمون بقزوين وبثُّوا الدعاة في أطراف الأرض، وبذلوا الرغائب وفتنوا[٤٤] النفوس.

وقد سمعنا تأويلات هذه الطوائف لآيات القرآن في قوله عز وجل: انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ وفي قوله تعالى: بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ وفي قوله تعالى: عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ وفي قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

إلى غير ذلك مما يطول ويَعُول[٤٥] فدعونا[٤٦] من التورية والحيلة والإيهام والكناية عن شيء لا يتصل [بالإرادة، والإرادة لشيء لا يتصل] بالتصريح، فالناسُ أنْقد لأديانهم وأحرص على الظَّفَر ببُغيتهم[٤٧] من الصيارفة لدنانيرهم ودراهمهم.

فلما انبهر المقدسي بما سمع وكاد يتفرى إهابه من الغيظ والعجز وقلة الحيلة، قال: الناس أعداء ما جهلوا، ونشر الحكمة في غير أهلها يورث العداوة، ويطرح[٤٨] الشحناء، ويقدح زَنْد الفتنة.

ثم كرَّ الحريري كرَّ المُدِلِّ وعطف عِطْفة الواثق بالظفر، فقال: يا أبا سليمان، من هذا الذي يُقِر منكم أن عصا موسى انقلبت حية، وأن البحر انفلق، وأن يدًا خرجتْ بيضاءَ من غير سوء، وأن بشرًا خُلق من تراب، وأن آخرَ ولدتْه أنثى من غير ذَكر، وأن نارًا مؤجَّجةً طُرح فيها إنسانٌ فصارت له بردًا وسلامًا، وأن رجلًا مات مائة عامٍ ثم بُعث فنظر إلى طعامه وشرابه على حالَيهما لم يتغيَّرا، وأن قبرًا تفقَّأ عن ميِّتٍ حَيِيَ، وأن طينًا دُبِّر[٤٩] فنُفِخ فيه فطار، وأن قمرًا انشقَّ، وأن جذعًا حنَّ، وأن ذئبًا تكلم، وأن ماءً نبع من أصابع فرَوِي منه جيشٌ عظيم، وأن جماعةً شبِعتْ من ثريدةٍ في قدْر جسم قَطاة؟

وعلى هذا، إن كنتم تَدْعون إلى شريعة من الشرائع التي فيها هذه الخوارق والبدائع فاعترفوا بأن هذه كلَّها صحيحة ثابتة كائنة لا ريب فيها ولا مِرْية، من غير تأويل ولا تدليس، ولا تعليل ولا تلبيس، وأعطونا

خَطَّكم بأن الطبائع تفعل هذا كله، والموادَّ تواتي له، والله تعالى يقدر عليه. ودعوا التورية والحيلة والغِيلة،[٥٠] والظاهر والباطن، فإن الفلسفة ليست من جنس الشريعة، ولا الشريعة من فن الفلسفة، وبينهما يرمي الرامي ويَهْمي الهامي. على أنا ما وجدنا الدَّيَّانين من المتألِّهين من جميع الأديان يذكرون أن أصحاب شرائعهم قد دَعَوْا إلى الفلسفة وأمروا بطلبها واقتباسها من اليونانيين، هذا موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان وزكريا ويحيى إلى محمدﷺ لم نَحُقَّ من يعزو إليهم شيئًا من هذا الباب، ويعلِّق عليهم هذا الحديث.

قال الوزير: ما عجبي من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان في هذا الاستحقار والتغضب، والاحتشاد والتعصب، وهو رجل يُعرَف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عدي النصراني، ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسيرَ دقائق كتبهم بغاية البيان.

فقلتُ: إن أبا سليمان يقول: إن الفلسفة حقٌ لكنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حقٌ لكنها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببحثه، والأول مكفيٌّ، والثاني كادح، وهذا يقول: أُمرت وعُلِّمت، وقيل لي، وما أقول شيئًا من تلقاء نفسي، وهذا يقول: رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت. وهذا يقول: نور العقل أهتدي به، وهذا يقول: معي نور خالق الخلق أمشي بضيائه. وهذا يقول: قال الله تعالى، وقال الملك، وهذا يقول: قال أفلاطن

وسقراط. ويُسمع من هذا ظاهر تنزيل، وسائغ تأويل، وتحقيق سنة، واتفاق أمة، ويُسمع من الآخر الهيولى والصورة والطبيعة والأُسطقسُ والذاتي والعرضي والأَيسي واللَّيسي، وما شاكل هذا مما لا يُسمع من مسلمٍ ولا يهودي ولا نصراني ولا مجوسي ولا مانَوي.

ويقول أيضًا: من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يُعرض بنظره عن الديانات، ومن اختار التدين فيجب عليه أن يُعَرِّد[٥١] بعنايته عن الفلسفة ويتحلى بهما مفترقَين في مكانين على حالين مختلفين، ويكون بالدين متقربًا إلى الله تعالى، على ما أوضحه له صاحب الشريعة عن الله تعالى، ويكون بالحكمة متصفحًا لقدرة الله تعالى في هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين المحيرة لكل عقل، ولا يهدم أحدهما بالآخر. أعني لا يجحد ما ألقى إليه صاحب الشريعة مجملًا ومفصَّلًا، ولا يغفل عما استخزن الله تعالى هذا الخلق العظيم على ما ظهر بقدرته، واشتمل بحكمته، واستقام بمشيئته، وانتظم بإرادته، واستتمَّ بعلمه. ولا يعترض على ما يبعُد في عقله ورأيه من الشريعة، وبدائع آيات النبوة بأحكام الفلسفة، فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصور على الغاية، والديانة مأخوذة من الوحي الوارد من العلم[٥٢] بالقدرة.

قال: ولعمري إن هذا صعب، ولكنه جماع الكلام، وأخذ المستطاع، وغاية ما عرض له الإنسان المؤيَّد باللطائف، المُزاح بالعلل وبضروب التكاليف.

قال: ومن فضل نعمة الله تعالى على هذا الخلق أنه نهج لهم سبيلين ونصب لهم عَلمين، وأبان لهم نجدين[٥٣] ليصلوا إلى دار رضوانه إما بسلوكهما وإما بسلوك أحدهما.

فقال له البخاري: فهلَّا دل الله على الطريقين اللذين رسمتَهما في هذا المكان؟ قال: دلَّ وبيَّن ولكنك عمٍ، أما قال: وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ، وفي فحوى هذا وما يعلمها إلا العالمون؟ فقد وصل العقلَ بالعلم كما وصل العلمَ بالعقل، لأن كمال الإنسان بهما، ألا ترى أن العاقل متى عُرِّي من العلم قلَّ انتفاعُه بعقله؟ كذلك العالم متى خُلِّي من العقل بطَل انتفاعه بعلمه، أما قال: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ؟ أما قال: فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ؟ أما قال: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أمَا ذمَّ قومًا حين قال: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ؟ أفما قال: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟ أما قال: وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ؟ أما قال: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ؟ وكتاب الله عز وجل محيطٌ بهذا كله، وإنما تقاد إلى طاعة رسولهﷺ بعد هذا فيما لا يناله عقلك، ولا يبلغه ذهنك، ولا يعلو إليه فكرك، فأمرك باتباعه والتسليم له، وإنما دخلت الآفة من قومٍ دهريين ملحدين ركبوا مطية الجدل والجهل، ومالوا إلى الشغْب بالتعصب، وقابلوا الأمور بتحسينهم وتقبيحهم وتهجينهم، وجهلوا أن وراء ذلك ما يفوت ذرعَهم، ويتخلف عن لحاقه رأيُهم ونظرهم، ويعمى دون كُنه ذلك بصرهم. وهذه الطائفة معروفة، منهم

صالح بن عبد القدوس، وابن أبي العوجاء، ومطر بن أبي الغيث، وابن الراوَندي، والصَّيْمَري، فإن هؤلاء طاحوا في أودية الضلالة، واستجرُّوا إلى جهلهم أصحابَ الخلاعة والمجانة.

فقال البخاري: فما الذي تركتَ بهذا الوصف للذين جمعوا بين الفلسفة والديانة، ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن، والخفي والجلي، والبادي والمكتوم؟ قال: تركت لهم الطويل العريض، القومُ زعموا أن الفلسفة مواطئةٌ للشريعة، والشريعة موافقةٌ للفلسفة، ولا فرق بين قول القائل: قال النبي، وقال الحكيم، وأن أفلاطن ما وضع كتاب النواميس إلا لنعلم كيف نقول، وبأي شيء نبحث، وما الذي نقدِّم ونؤخر، وأن النبوة فرعٌ من فروع الفلسفة، وأن الفلسفة أصل علم العالم، وأن النبي محتاجٌ إلى تتميم ما يأتي به من جهة الحكيم، والحكيمَ غنيٌ عنه، هذا وما أشبهه. وأن صاحب الدين له أن يعيِّن ويورِّي ويشير ويكنِّي حتى تتم المصلحة، وتنتظم الكلمة، وتتفق الجماعة، وتثبت السنة، وتحلو المعيشة، وحتى قال قائل منهم: «أوائل الشريعة أمورٌ مبتدَعة، ووسائطها سننٌ متبَعة، وأواخرها حقوقٌ منتزَعة»، وإن هذا النعت من قولي: «إن الشريعة إلهية والفلسفة بشرية»، أعني أن تلك بالوحي وهذه بالعقل، وأن تلك موثوقٌ بها ومطمأَنٌ إليها، وهذه مشكوكٌ فيها مضطرَبٌ عليها.

قال له البخاري: فلِمَ لمْ ينهج صاحب الشريعة هذه الطريق، وكان يزول هذا الخصام، وينتفي هذا الظن، وتكسَد هذه السوق؟ فقال: إن

صاحب الشريعة مستغرَقٌ بالنور الإلهي، فهو محبوس على ما يراه ويبصره، ويجده وينظره، لأنه مأخوذ بما شهِده بالعِيان، وأدركه بالحس، وناله بوديعة الصدر عن كل ما عداه، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذي حصل له، ولا يسعَد بدعوته إلا من وفِّق لإجابته، وأذعن لطاعته، واهتدى بكلمته. والفلسفة كمال بشري والدين كمالٌ إلهي، والكمال الإلهي غنيٌ عن الكمال البشري، والكمال البشري فقيرٌ إلى الكمال الإلهي، فهذا هذا. وما أمر الله عز وجل بالاعتبار، ولا حثَّ على التدبر، ولا حرك القلوب إلى الاستنباط، ولا حبب إلى القلوب البحث في طلب المكنونات؛ إلا ليكون عباده حكماء ألبَّاء أتقياء أذكياء، ولا أمر بالتسليم، ولا حظر الغلو والإفراط في التعمق إلا ليكون عباده لاجئين إليه، متوكلين عليه، معتصمين به، خائفين منه، راجين له، يدعونه خوفًا وطمعًا، ويعبدونه رغبًا ورهبًا، فبيَّن ما بيَّن حرصًا على معرفته وعبادته، وطاعته وخدمته، وأخفى ما أخفى لتدوم حاجتُهم إليه، ولا يقع الغِنى عنه، وبالحاجة يقع الخضوع والتجرد، وبالاستغناء يعرض التجبر والتمرد، وهذه أمورٌ جاريةٌ بالعادة، وثابتة بالسيرة الجائرة والعادلة، ولا سبيل إلى دفعها ورفعها وإنكارها وجحدها، فلهذا لزم كلَّ من أدرك بعقله شيئًا أن يتمِّم نقصه بما يجده عند من أدرك ما أدرك بوحْيٍ من ربه.

وقال أيضًا: مما يؤكد هذه الجملة أن الشريعة قد أتت على معقولٍ كثير بنور الوحي المنير، ولم تأتِ الفلسفة على شيء من الوحي لا كثيرٍ ولا قليل.

قال: وليس ليونان نبيٌ يُعرف، ولا رسولٌ من قبَل الله صادق، وإنما كانوا يَفزعون إلى حكمائهم في وضع ناموسٍ يجمع مصالح حياتهم ونظام عيشهم ومنافع أحوالهم في عاجلتهم، وكانت ملوكهم تحب الحكمة وتؤثر أهلها، وتقدِّم من تحلَّى بجزء من أجزائها، وكان ذلك الناموس يُعمل به ويُرجع إليه، حتى إذا أبلاه الزمان، وأخلقه الليل والنهار، عادوا فوضعوا ناموسًا آخر جديدًا بزيادة شيء على ما تقدم أو نقصانٍ، على حسب الأحوال الغالبة على الناس، والمغلوبة بين الناس، ولهذا لا يقال: إن الإسكندر في أيام ملكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا، وكان يذكر نبيًّا يقال له فلان، أو قال: أنا نبي، ولقد واقع دارًا وغيره من الملوك على طريق الغلبة في طلب الملك، وحيازة الديار، وجباية الأموال، والسبي والغارة، ولو كان للنبوة ذكرٌ وللنبي حديثٌ لكان ذلك مشهورًا مذكورًا، ومؤرَّخًا معروفًا.

قال الوزير: هذا كلامٌ عجيبٌ ما سمعت مثله على هذا الشرح والتفصيل. قلتُ: إن شيخنا أبا سليمان غزير البحر، واسع الصدر، لا يُغلَق عليه في الأمور الرُّوحانية والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية، وهو طويل الفكرة، كثير الوحدة، وقد أوتي مزاجًا حسن الاعتدال، وخاطرًا بعيدَ المنال، ولسانًا فسيح المجال. وطريقته هذه التي اجتباها مكتنَفةٌ بمعارَضاتٍ واسعة، وعليها مداخل لخصمائه، وليس يفي كل أحدٍ بتلخيصه لها، لأنه قد أفرز الشريعة من الفلسفة، ثم حث على انتحالهما معًا، وهذا شبيهٌ بالمناقضة. وقد رأيت صاحبًا لمحمد بن زكرياء في هذه الأيام ورد من الرَّي يقال له أبو غانم الطبيب يشادُّه في هذا الموضع

ويضايقه، ويُلزمه القول بما ينكره على الخصم، وإذا أذنتَ رسمتُ كلامهما في ورقات. فقال الوزير: قد بان الغرض الذي رمى إليه، وتقليبُه بالجدل لا يزيده إلا إغلاقًا، والقصد معروف، والوقوف عليه كافٍ، ومع هذا فليتَ حظًّنا منه كان يتوفر بالتلاقي والاجتماع لا بالرواية والسماع. هات فائدة الوداع فقد بلغتَ في المؤانسة غاية الإمتاع.

قلت: أكره أن أختم مثل هذه الفِقَر الشريفة بما يشبه الهزل وينافي الجِد، فإن أذنتَ رويتُ ما يكون أساسًا ودِعامة لما تقدم. قال: هات ما أحببتَ، فما عهدنا من روايتك إلا ما يشوِّقنا إلى رؤيتك.

قلت: قال ابن المقفع: عمل الرجل بما يعلم أنه خطأٌ هوًى والهوى آفةُ العفاف، وتركُه العمل بما يعلم أنه صوابٌ تهاوُن والتهاون آفةُ الدين، وإقدامُه على ما لا يعلم أصوابٌ هو أم خطأٌ لَجاج واللَّجاج آفة الرأي.

فقال — حرس الله نفسه: ما أكثرَ رونقَ هذا الكلام! وما أعلى رتبتَه في كُنه العقل! اكتبه لنا، بل اجمع لي جزءًا لطيفًا من هذه الفِقَر فإنها تروِّح العقل في الفيْنة بعد الفينة، فإن نور العقل ليس يشع في كل وقت، بل يشع مرةً ويبرق مرةً، فإذا شعَّ عم نفعه، وإذا برق خصَّ نفعه، وإذا خفِي بطَل نفعه. قلت: أفعل. فقال: إن كان معك شيءٌ آخر فاذكره، فإن الحديث الحسن لا يُمل، وما أحسنَ ما قال خالد بن صفوان! فإنه قيل له: أتمَل الحديث؟ قال: إنما يُملُّ العتيق. قال: صدق خالد، إن الحديث لا يُمَل من الزمان[٥٤] إلا فيما يليه،[٥٥] وإلا فكيف يُمل في أول زمانه

وفاتحة أوانه؟ وإنما الملل يعرض بتكرر الزمان وضَجَر الحس ونزاع الطبع إلى الجديد، ولهذا قيل: لكل جديدٍ لذة.

فحكيتُ أنه لما تقلد كسرى أنوشروان مملكتَه عكف على الصَّبُوح والغَبُوق، فكتب إليه وزيره رقعةً يقول فيها: إن في إدمان المَلك ضررًا على الرعية، والوجهُ تخفيف ذلك والنظرُ في أمور المملكة. فوقَّع على ظهر الرقعة بالفارسية بما ترجمتُه: يا هذا، إذا كانت سبلنا آمنة، وسيرتنا عادلة، والدنيا باستقامتنا عامرة، وعُمالنا بالحق عاملة، فلِمَ نمنع فرحةً عاجلة؟

قال: من حدثك بهذا؟ قلت: أبو سليمان شيخنا، قال: فكيف كان رضاه عن هذا الملك في هذا القول؟ فقلت: اعترض فقال: أخطأ من وجوه؛ أحدها أن الإدمان إفراط والإفراط مذموم، والآخَر أنه جهل أن أمن السبيل وعدل السيرة وعمارة الدنيا والعمل بالحق متى لم يوكَّل بها الطرفُ الساهر، ولم تحَط بالعناية التامة، ولم تحفَظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام؛ دبَّ إليها النقص والنقص بابٌ للانتقاض، مزعزِعٌ للدِّعامة، والآخَر أن الزمان أعز من أن يُبذل في الأكل والشرب والتلذذ والتمتع، فإن في تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها وإبعاد الغَيِّ عنها ما يستوعب أضعاف العمر، فكيف إذا كان العمر قصيرًا، وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرًا؟! والآخَر أنه ذهب عليه أن الخاصة والعامة إذا وقفتْ على استهتار الملك باللذات، وانهماكه في طلب الشهوات، ازدرتْه واستهانت به، وحدَّثت عنه بأخلاق الخنازير وعادات الحمير. واستهانة الخاصة

والعامة بالناظر في أمرها والقيِّم بشأنها متى تكررت على القلوب تطرَّقت إلى اللسان، وانتشرت في المحافل، والتفتَ بها بعضهم إلى بعض، وهذه مكسَرةٌ للهيبة، وقلةُ الهيبة رافعةٌ للحشمة، وارتفاع الحشمة باعثٌ على الوثبة، والوثبة غير مأمونةٍ من الهلكة، وما خلا الملِك من طامعٍ راصدٍ قطُّ، وليس ينبغي للملِك الحازم أن يظن أنه لا ضد له ولا منازِع، وقد ينجم الضد والمنازِع من حيث لا يحتسب، وما أكثرَ خجل الواثق! وما أقلَّ حزمَ الوامق! وما أقلَّ يقظة المائق! (٥٧)

ثم قال: وعلى الضد: متى كان السائس ذا تحفظٍ وبحثٍ، وتتبُّعٍ وحزمٍ، وإكبابٍ على لم الشعَث وتقويم الأوَد وسد الخلَل وتعرُّف المجهول وتحقق المعلوم ورفع المنكر وبث المعروف؛ احترستْ منه العامة والخاصة، واستشعرت الهيبة، والتزمت بينها النَّصَفة، وكُفِيت كثيرًا من معاناتها ومراعاتها، وإن كان للدولة راصدٌ للغرة يئس من نفوذ الحيلة فيها، لأن اللص إذا رأى مكانًا حصينًا وعهِد عليه حراسًا لم يحدث نفسه بالتعرض له، وإنما يقصد قصرا فيه ثُلمة، وبابًا إليه طريق. والأعراض بالأسباب، وإذا ضَعف السبب ضَعف العرَض، وإذا انقطع السبب انقطع العرَض.

فقال – أدام الله أيامه: هذا كلامٌ كافٍ شافٍ. وقال بعد ذلك: حدِّثني عما تسمع من العامة في حديثنا.

قلتُ: سمعت بباب الطاق قومًا يقولون: اجتمع الناس اليوم على الشط، فلما نزل الوزير ليركب المركب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعَوَز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر وتهتُّك صاحب العيال،

وأنه أجابهم بجوابٍ مُرٍّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم بالاستغاثة: بعدُ لم تأكلوا النُّخالة.

فقال: والله ما قلت هذا، ولا خطر لي على بال، ولم أقابل عامةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثل هذه الكلمة الخشناء، وهذا يقوله من طرح[٥٧] الشرَّ وأحب الفساد وقصد التشنيع عليَّ والإيحاش مني، وهو هذا العدو الكلب (يعني ابن يوسف) كفاني الله شرَّه، وشغله بنفسه، ونكَّس كيده على رأسه! والله لأنظرنَّ لها وللفقراء بمالٍ أطلقه من الخزانة، وأرسم ببيع الخبز ثمانية بدرهم، ويصل ذلك إلى الفقراء في كل مَحَلةٍ على ما يذكر شيخها، ويبيع الباقون على السعر الذي يقوَّم لهم، ويشتريه الغني الواجد! ففعل ذلك – أحسن الله جزاءه – على ما عرفتُ وشاهدتُ، وأبلغته بنشر الدعاء له في الجوامع والمجامع بطول البقاء ودوام العَلاء وكبت الأعداء ونصر الأولياء. ثم كتبتُ جزءًا من الفِقَر على ما رسم من قبل، فلما أوصلته إليه قال لي: اقرأ. فقرأته عليه فقال: صل هذا الجزء بجزء آخر من حديث النبيﷺ والصحابة، وبجزء من الشعر، وبشيء من معاني القرآن، فإنه مقدمٌ على كل شيء بحسب ما رفع الله من خطره، وأحوج إلى فهمه، وندَب إلى العمل به، وأثاب على التفكر فيه والتعجب منه.

وعظ[٥٨] رجلٌ من «جهينة» عمرو بن العاص في قصة الحكومة، فقال عمرو له: ما أنت وذاك يا تيس جهينة؟ فوالله ما ينفعك الحق، ولا يضرك الباطل، فاسكت فإن الظِّلف لا يجري مع الخف.

وقال بعض الحكماء: إن المدن تُبنى على الماء والمرعى والمحتطَب والحصانة.

وقال الشاعر:

لاح سُهيلٌ في الظلامِ الدامسِ كأنه نارٌ بكف القابسِ

قال ربيعة بن عامر بن مالك في عمرو بن الإطنابة – حين دفع أخته وأخذ أخاه وكان أسيرًا في قومه، وجعل دفع أخيه إليه صداقَ أخته، وهو الذي تسميه العرب المساهاة:[٥٩] فقَد حزمي الذي هُديت له وعزمي الذي أُرشدتُ إليه. وقال الشاعر:

وساهَى بها عمرٌو وراعَى إفالَه[٦٠] فزُبدٌ وتمرٌ بعد ذاك كثيرُ

وكانت دية العربي مائة وَسْقٍ، ودية الهجين خمسين وسقًا، ودية المولى عشرة أوسق. وكانت العرب تجعل دية المُعِمِّ المُخْوِل مائة بعيرٍ، ودية المولى خمسةً وعشرين بعيرًا.

وقال جرير:

رأيتُ بني نبهان أذنابَ طيِّئٍ وللناسِ أذنابٌ تُرَى وصدورُ

ترى شَرَط[٦١]المِعْزى مهور نسائهم وفي شرط المعزى لهن مهورُ

وقال خالد بن جعفر بن كلاب: [٦٢]

بل كيف تكفرني «هوازنُ» بعدما | أعتقـــتُهم فتوالـــدوا أحـــرارا
وقتلـــتُ ربَّهـــمُ زُهيـــرًا بعـــدما | جـدَع الأنـوفَ وأكثـرَ الأوتـارا
وجعلـتُ مهـر نسـائهم وديـاتهم | عُقـل[٦٣] الملـوك هَجائنًـا وبِكـارا؟

وقال جندل بن صخرٍ، وكان عبدًا:

ومـا فـكَّ رِقِّـي ذات دلٍّ خـدَلَّجٌ | ولا سـاق مـالي صُـدْقةٌ وعُقـولُ[٦٤]
ولكن نَماني كلُّ أبيضَ خِضْرِمٍ[٦٥] | فأصبحتُ أدري اليوم كيف أقول

وقتل الكلبيُّ عبدَ الله بن الجَوْشَن الغطفاني بقتله ابنه الجرَّاح بن عبد الله (روَّاد)، وكانوا عرضوا عليه الدية، فقال:

شَـــفَيتُ بـــروَّادٍ غلـــيلًا وجدتـــه | علـى القلـب منـه مُسْتَسـرٌّ وظـاهرُ
ألا ليتَ قبرًا بين أُدمَى[٦٦] ومطرقٍ | يحدِّثـه عنـي الأحاديـثَ خـابرُ
وقـالوا نَدِيـه مـن أبيـه ونفتـدي | فقلـتُ: كـريمٌ مـا تَديـه الأبـاعر
ألـم تـر أن المـال يـذهب دَثْـرُه[٦٧] | وتَغْبُـر أقـوالٌ وتَبْقَـى المعـايرُ؟

أدَمى ومطرق غديران[٦٨] بين فَدَك وبلاد طيئ.

سئلت ابنة الخُسِّ: هل يَلقَح البازل؟ قالت: نعم وهو رازِم، أي وإن كان لا يقدر على القيام من الضعف والهزال. يقال: جملٌ بازلٌ[٦٩] وناقةٌ بازلٌ، ويقال: ضرَبه فبَرْكَعَه إذا أبْركه وتَبَرْكَع، ويقال: شِمْ لي هذه الإبل، أي انظر لي خبرها.

ويقال لولد كل بهيمةٍ إذا ساء غذاؤه: جَحِنٌ ومُحْثَلٌ وجَذِعٌ، وكل ما غذِّي بغير أمه يقال له: عَجِيٌّ، وكذلك الجحن[٧٠] والوَغِل والسَّغِل كلُّه السيئ الغذاء.

سئل النبيﷺ عن ضالة الإبل، فقال: ما لَك ولها؟ معها حذاؤها [٧١] وسقاؤها، ترِد الماء وتأكل من الشجر حتى يأتيها «ربُّها».

سئل عليه السلام عن ضالة الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذئب.

قيل له عليه السلام: فاللُّقَطَة؟ قال: تعرِّفها سنة وتحصي وِكاءَها ووِعاءها وعِفاصها [٧٢] وعددَها، فإن جاء صاحبها فأدِّها إليه.

وقال أبي بن كعب: أصبتُ مائة دينارٍ على عهد النبيﷺ، فقال: احفظ عفاصها ووكاءها وعددها، فإن جاء صاحبُها فأخبرك بعددها وعفاصها ووكائها فأدها إليه وإلا فعرِّفها سنة، ثم استمتع بها.

قال علي بن الحسن: خرج رسول اللهﷺ حتى إذا كان بقُفِّ النخلتين٧٣ قال له الأنصار: يا رسول الله، هل لك في السباق؟ قال: نعم. وهو يومئذ على النَّواضح[٧٤] – وكان رسول اللهﷺ يسير في أخريات

الناس، وأسامة بن زيدٍ على العضباء ناقة رسول اللهﷺ، وهو في أول الناس – فقال: أين أسامة؟ فتنادَى الناسُ حتى بلغ أسامةَ الصوتُ، فوضع السَّوط في الناقة فأقبلتْ، فلما دنت قال رسول اللهﷺ: إن إخواننا من الأنصار قد أرادوا السباق فأَنِخ ناقتك حتى ترغو، ثم علِّق الخطامَ ثم سابقْهم. ففعل واستبقوا، فسبقت ناقة رسول اللهﷺ، فجعل أسامةُ يكبِّر ويقول: سبق رسولُ اللهﷺ، ورسولُ الله يقول: سبق أسامةُ. فلما أكثر من ذلك قال له: أقصرْ يا أسامة، فإن إخواننا من الأنصار فيهم حياءٌ وحفيظة.

قال: وليس لشيء من الحيوان سَنامٌ إلا البعير، ولبعض البَخاتيِّ سَنامان، ولبعض البقر شيء صغيرٌ على موضع الكاهل. والجمل يبول إلى خلفٍ وكذلك الأسد. وقضيبُ الجمل من عَصَبٍ، وقضيب الإنسان من لحمٍ وغضروفٍ، وقضيب الذئب والثعلب من عظمٍ، وقضيب ذكر الأرانب من عظمٍ على صورة الثقب كأنه نصف أنبوبةٍ مشقوقة. وفي قلب الثور عَظم، وربما وُجد في قلب الجمل. والمرأة تلد من قُبل، والناقة من خلف. وزمان نَزْو الجمال في شُباط. والإناثُ من الإبل تحمل اثني عشر شهرًا وتضع واحدًا وتَلْقَح إذا بلغتْ ثلاث سنين، وكذلك الذكر، ثم تقيم الأنثى سنةً ثم يُنْزى عليها.

وزعم صاحب المنطق أن الجمل لا ينزو على أمه، وإن اضطُرَّ كرِهه.

قال: وقد كان رجلٌ في الدهر السالف ستر الأمَّ بثوبٍ ثم أرسل بكرًا عليها، فلما عرف ذلك لم يتم وقطع، وحقد على الجمَّال فقتله.

قال: وقد كان لملكٍ فرسٌ أنثى وكان لها أفلاءٌ،[٧٥] فأراد أن تحمل من أكرمها فصَدَّ عنها وكرهها، فلما سُترت وثب فركبها، فلما رُفع الثوب ورآها هرب ومرَّ حُضْرًا [٧٦]حتى ألقى نفسه في بعض الأودية فهلك[٧٧].

هذا كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه.

قال حذيفة: كن في الفتنة كابن اللَّبُون؛ لا ظهر فيُركب ولا لبن فيُحلب.

قال ديوجانس: إن المرأة تُلقَّن الشر من المرأة، كما أن الأفعى تأخذ السمَّ من الأصِلَّة.

وقال فيثاغورس: إن كثيرًا من الناس يرون العمى الذي يعرض لعين البدن فتأباه أنفسهم، فأما عمى عين النفس فإنهم لا يرونه ولا تأباه أنفسهم، فلذلك لا يستحيون.

وقال أيضًا: كما أن الذي يسلك طريقًا لا يعرفه لا يدري إلى أي موضعٍ يؤديه، كذلك الذي يسمع كلامًا لا يعرف الغرض فيه لا يربح منه إلا التعب.

قيل لديوجانس: أيهما أولى طلب الغنى أم طلب الحكمة؟ فقال: للدنيا الغِنى، وللآخرة الحكمة.

وقيل له: متى تطيب الدنيا؟ قال: إذا تفلسف ملوكُها وملَك فلاسفتُها.

فقال الوزير – أسعده الله: عندي أن هذا الكلام مدخول، لأن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرَّغ نفسه للدار الآخرة، فكيف

يكون الملِك رافضًا للدنيا وقاليًا لها، وهو محتاجٌ إلى سياسة أهلها والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم وإقامة أبنيتهم والتوسعة عليهم ومواكلتهم ومشاربتهم ومداراتهم والإشراف على سرهم وعلانيتهم؟ والملك أتعب من الطبيب الذي يجمع معالجةً كثيرةً بضروب الأدوية المختلفة والأغذية المتباينة، هذا والطبيب فقيرٌ إلى تقديم النظر في نفسه وبدنه، ونفي الأمراض والأعراض عن ظاهره وباطنه، ومن كان هكذا ومن هو أكثر منه وأشد حاجةً وعلاقةً كيف يستطيع أن يكون مِلكًا وحكيمًا؟! ولعل قائلًا يظن هذا ممكنًا، ويكون الملِك واعيًا في الحكمة بالدعوى، وقائمًا بالمُلك على طريق الأَوْلى، وهذا إلى التِياث الأمر واختلاله واختلاطه في الملك والفلسفة [أقرب منه إلى إحكام الأصل وإثبات الفرع. قال: ولهذا] لم نجد نحن في الإسلام من نظر في أمر الأمة على الزهد والتُّقَى وإيثار البر والهدى إلا عددًا قليلًا. والمجوس تزعم أن الشريعة معرِّجةٌ عن الملك، أي الذي يأتي بها ليس له أن يعرِّج على الملك، بل له أن يكِل المُلك إلى من يقوم به على أحكام الدين، ولهذا قال ملكنا الفاضل: الدين والمُلك أخَوان؛ فالدين أسٌّ والمُلك حارس، فما لا أسَّ له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع.

فقلت له: هذا باب إن توزع(٧٨) القولُ فيه طال، وإن رُمِي بالقصد جاز، وللأئمة كلامٌ كثيرٌ في الإمامة والخلافة وما يجري مجرى النيابة عن صاحب الديانة على فنونٍ مختلفة، وجمل متعددة. إلا أن الناظر في أحوال الناس ينبغي أن يكون قائمًا بأحكام الشريعة، حاملًا للصغير

والكبير، على طرائقها المعروفة، لأن الشريعة سياسة الله في الخلق، والمُلك سياسة الناس للناس، على أن الشريعة متى خلتْ من السياسة كانت ناقصة، والسياسة متى عَرِيت من الشريعة كانت ناقصة. والملِك مبعوث كما أن صاحب الدِّين مبعوث، إلا أن أحد البعثين أخفى من الآخر، والثاني أشهر من الأول. (٧٩) قال – أطال الله بقاءه: كنت أحب أن أعلم من أين قلتَ إن الملِك مبعوث أيضًا، فإن هذه الكلمة ما ثبتت في أذني قط، ولا خطرت لي على بال. قلتُ: قال الله عز وجل في تنزيله: إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا. فعجب وقال: كأني لم أسمع بهذا قط.

ذُكر للإسكندر سوء أحوال رؤساء مذهبه لما كان أبوه احتاز أموالهم وسلب أحوالهم، فقال: يجب للآباء على الأبناء إزالة الذم عنهم، [ومحو الإثم، واستعطاف القلوب عليهم، ونشر المحامد عنهم.] وأمر برد أموالهم عليهم، وزاد في الإحسان إليهم، وقال: قد بلغ من فرط شفقة الآباء على الأبناء أن يسيئوا إلى أنفسهم لتكون الإساءة سببًا للإحسان إلى أولادهم، لأنهم يرون أولادهم كأنفسهم لأنهم من أنفسهم.

فقلتُ: أيها الوزير، إني لأعجب من الإسكندر في الفعل الرشيد والقول السديد، فهذا المنصور أبو جعفر صاحب الشهامة والصرامة أخذ من وجوه العراق أموالًا بخواتيم أصحابها وأفقرهم، وجعلها في خزائنه بعد أن كتب على تلك الخرائط والظروف أسماء أهلها، ثم وصى المهدي بردها على أصحابها بعد موته ووكد ذلك عليه، وقال: يا بني، إنما أريد

بهذا أن أحببك إلى الناس. ففعل المهدي ذلك، فانتشر له الصيت وكثر الدعاء وعجَّت الأصوات، وقال الناس: هذا هو المهدي الذي ورد في الأثر. فقال: هذا عجب.

وقال سقراط: ينبغي لمن علم أن البدن هو شيء جُعل نافعًا للنفس مثل الآلة للصانع أن يطلب كل ما يصير البدن به أنفع وأوفق لأفعال النفس التي هي فيه، وأن يهرُب من كل ما يصيِّر البدن غير نافعٍ ولا موافق لاستعمال النفس له.

قال أوميروس: لا ينبغي لك أن تؤثر علم شيء إذا عُيِّرتَ به غضبتَ، فإنك إذا فعلت هذا كنت أنت القاذف لنفسك.

وقال دِيوجانِس: من القبيح أن تتحرى في أغذية البدن ما يصلح له ولا يكون ضارًّا، ولا تتحرى في غذاء النفس الذي هو العلم لئلا يكون ضارًّا.

وقال أيضًا: من القبيح أن يكون الملَّاح لا يطلق سفينته في كل ريح، ونحن نطلق أنفسنا في غير بحث ولا اختبار.

ذكر لنا أبو سليمان أن فيلسوفًا ورد مدينةً فيها فيلسوف، فوجه إليه المدني كأسًا ملأى يشير بها إلى أن الاستغناء عنه واقعٌ عنده، فطرح القادم في الكأس إبرةً يعلمه أن معرفته تنفُذ في معرفته.

وقال فيلسوفٌ يوناني: التقلب في الأمصار والتوسط في المجامع،[٨٠] والتصرف في الصناعات، واستماع فنون الأقوال مما يزيد الإنسان بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفةً وعلمًا.

قال الوزير: ما البصيرة؟ قلت: لحظُ النفس الأمور. قال: فما الحكمة؟ قلت: بلوغ القاصية من ذلك اللحظ. قال: فما التجربة؟ قلت: كمال النفس بلحاظ ما لَها. قال: هذا حسن.

قال أنكساغورس: كما أن الإناء إذا امتلأ بما يسعه من الماء ثم تُجعل فيه زيادة على ذلك فاض وانصب ولعله أن يخرج معه شيءٌ آخر، كذلك الذهن ما أمكنه أن يضبطه فإنه يضبطه، وإن طُلب [منه] ضبطُ شيء آخر أكثر من وُسْعه تَحيَّر، ولعل ذلك يضيع عليه شيئًا مما كان الذهن ضابطًا له. وهذا كلام صحيح، وإني لأتعجب من أصحابنا إذ ظنوا وقالوا: إن الإنسان يستطيع حفظ جميع فنون العلم والقيام بها والإبقاء عليها، ولو كان هذا مقدورًا عليه [لوُجد، و] لو وُجد لعُرف، ولو عُرف لذُكر، وكيف يجوز هذا وقلب الإنسان مضغة، وقوته مقصورةٌ، وانبساطه متناهٍ، واقتباسه وحفظه وتصوره وذكره محدودٌ؟ ولقد حدثني علي بن المهدي الطبري قال: قلتُ ببغداد لأبي بشر: لو نظرتَ في شيء من الفقه مع هذه البراعة التي لك في الكلام، ومع هذا اللسان الذي تحير فيه كل خصم. قال: أفعل. قال: فكنت أقرأ عليه بالنهار مع المختلفة الكلام، وكان يقرأ عليَّ بالليل شيئًا من الفقه، فلما كان بعد قليل أقصر عن ذلك، فقلت له: ما السبب؟ قال: والله ما أحفظ مسألةً جليلةً في الفقه إلا وأنسي مسألةً دقيقةً في الكلام، ولا حاجة لي في زيادة شيء يكون سببًا لنقصان شيء آخر مني.

وسأل رجلٌ آخَرَ أن يقرضه مالًا، فوعده ثم غدر به فلامه الناس، فقال: لأن يحمرَّ وجهي مرةً أحبُّ إليَّ من أن يصفرَّ مرارًا كثيرة.

ووَلِي أريوس ولايةً فقال له أصدقاؤه: الآن يظهر فضلك. فقال: ليست الولاية تظهر الرجل، بل الرجل يظهر الولاية.

وقال ديوجانس: الدنيا سوق المسافر، فليس ينبغي للعاقل أن يشتري منها شيئًا فوق الكفاف.

وقيل لاسطفانُس: من صديقك؟ قال: الذي إذا صرتُ إليه في حاجةٍ وجدتُه أشد مسارعةً إلى قضائها مني إلى طلبها.

وقال أفلاطون: إن للنفس لذتين: لذةً لها مجردةً عن الجسد، ولذةً مشارِكة للجسد، فأما التي تنفرد بها النفس فهي العلم والحكمة، وأما التي تشارك فيها البدن فالطعام والشراب وغير ذلك.

وقيل لسقراط: كيف ينبغي أن تكون الدنيا عندنا؟ قال: لا تستقبلوها بتمنٍّ لها، ولا تُتْبعوها بتأسف عليها، فلا ذلك مُجْدٍ عليكم، ولا هذا راجعٌ إليكم.

وقال سقراط: القُنْيَة[٨١]مخدومة، ومن خدم غير نفسه فليس [بحرٍّ].

وقال بعض ندماء الإسكندر له: إن فلانًا يسيء الثناء عليك، فقال: أنا أعلم أن فلانًا ليس بشرير، فينبغي أن يُنظر هل ناله من ناحيتنا أمرٌ

دعاه إلى ذلك، فبحث عن حاله فوجدها رثَّةً، فأمر له بصلةٍ سَنيَّة، فبلغه بعد ذلك أنه يبسط لسانه بالثناء عليه في المحافل، فقال: أما ترون أن الأمر إلينا أن يقال فينا خيرٌ أو شر؟

قيل لطيماثاوُس: لم صرت تسيء القول في الناس؟ قال: لأنه ليس يمكنني أن أسيء إليهم بالفعل. وكان مرة في صحراء، فقال له إنسان: ما أحسن هذه الصحراء! قال: لو لم تحضرها أنت.

وقال غالوس: ما وجه الاهتمام بما إن لم يكن(٨٢) أُجْزِئَ فَوتُه، وإن كان فالمنفعة به وبحضوره قليلة منقطعة.

وقال سقراط: ينبغي إذا وَعظتَ ألَّا تتشكل بشكل منتقمٍ من عدو، ولكن بشكل من يُسْعِط أو يَكْوي بعلاجه داءً بصديق له، وإذا وُعظتَ أيضًا بشيء فيه صلاحك فينبغي أن تتشكل بشكل المريض للطبيب.

ركب مقاريوس في حاجة فمرَّ بزيموس وقد تعلق به رجل يطالبه بمال اختدعه عنه وعليهما جماعةٌ من الناس، وهو يسأله تنجيم ذلك المال عليه نجومًا ليؤديه، ويتضرع أشد التضرع. فقال مقاريوس: ما طَلِبتُك عند هذا الرجل؟ فقال: أتاني فخدعني بالزهد والنسك عن مالي، ووعدني أن يملأ بيتي ذهبًا من صنعته، فلم أزل في الاسترسال إلى ظاهره السليم حتى أفقرني باطنه السقيم. فقال له مقاريوس: إن كل من بذل شيئًا إنما يبذله على قدر وسعه، وكان زيموس أتاك على حاله التي هو عليها، ولم يكن ليتسع لأكثر من ذلك القول، وأما عمل الذهب فبيِّن

ظاهر لأن فقره يدل على عجزه وضعفه عنه، ومن أمَّل الغِنَي عند الفقير فغاية ما يمكن أن يبلغه أن يصير مثله، وآخِر ما يُؤمَّل عند الفقير نيل الفقر، فقد أصبتَ ما كنتَ تحب أن تجده عند زيموس، وهو حظٌ إن تمسكتَ به لم يَغْلُ بما تَلِف من مالك، ولئن كان وعدك أن يفيدك مالًا باطلًا فلقد أفادك معدنًا حقًّا من غير قصدٍ إلى نفعك. ثم أقبل على زيموس وقال له: ما أبعد شبه معدنك من المعادن الطبيعية! إن المعادن تلفظ الذهب، ومعدِنك هذا يبتلع الذهب، ومن جاور معدنًا منها أغناه، ومن جاور معدنَك أفقره. والمعادن الطبيعية تثمر من غير قول، ومعدنك يقول من غير إثمار. فقال زيموس: أيها الفاضل، لئن عبتَني فلستُ بأول حكيم لقي من الناس الأذى. فقال له: أجل، ولا آخرهم ولا أوسطهم، لكنك من الجهال الذين لقي الناس منهم الأذى.

فقال – أعلى الله قولَه: فهل لهذا الأمر، أعني الكيمياء، مرجوع؟ وهل له حقيقة؟ وما تحفظ عن هذه الطائفة؟

فكان الجواب: أما يحيى بن عَدي – وهو أستاذ هذه الجماعة – فكان في إصبعه خاتمٌ من فضةٍ يزعم أن فضته عُملت بين يديه، وأنه شاهد عملها عِيانًا، وأنه لا يشك في ذلك.

وأما أصحابه كابن زرعة وابن خَمَار، فذكروا أن ذلك تم عليه من فعلٍ لم يَفطن له من بعض من اغترَّه من هؤلاء المحتالين الخداعين.

وأما شيخنا أبو سليمان فحصلتُ من جوابه على أنه ممكن، ولم يذكر سبب إمكانه ولا دليل حقيقته.

وأما أبو زيد البلخي – وهو سيد أهل المشرق في أنواع الحكمة – فذكر أنه محالٌ ولا أصل له، وأن حكمة الله تعالى لا توجب صحة هذا الأمر، وأن صحته مفسدةٌ عامة، وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وأما مسكويه – وها هو بين يديك – فيزعم أن الأمر حقٌ وصحيح، والطبيعة لا تمنع من إعطائه، ولكن الصناعة شاقة، والطريق إلى إصابة المقدار عسرة، وجمعَ الأسرار صعبٌ وبعيد ولكنه غير ممتنع. فقد مضى عمرُه في الإكباب على هذا بالري أيام كان بناحية أبي الفضل[٨٣] وأبي الفتح ابنه مع رجل يُعرف بأبي الطيب، شاهدته ولم أحمد عقله، فإنه كان صاحب وَسواسٍ وكذبٍ وسَقَط، وكان مخدوعًا في أول أمره خادعًا في آخر عمره.

وأبينُ ما سمعتُه في هذا الحديث أن الطبيعة فوق الصناعة، وأن الصناعة دون الطبيعة، وأن الصناعة تتشبه بالطبيعة ولا تكمل، والطبيعة لا تتشبه بالصناعة وتكمل، وأن الطبيعة قوة إلهيةساريةٌ في الأشياء واصلةٌ إليها، عاملةٌ فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالة والانفعال والمواتاة، إما على التمام وإما على النقصان. وقيل: إن الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما في المادة أبعدَ الطرق ولا تترك أقرب الطرق، فلما كانت المعادن هي التي تُعطي هذه الجواهر على قدر المقابلات العلوية

والأشكال السماوية والمواد السفلية والكائنات الأرضية، لم يجزْ أن تكون الصناعة مساويةً لها، كما لم يجز أن تكون مستعليةً عليها، لأن الصناعة بشريةٌ مستخرَجةٌ من الطبيعة التي هي إلهية، ولا سبيل لقوةٍ بشريةٍ أن تنال قوةً إلهيةً بالمساواة، فأما بالتشبيه والتقريب والتلبيس فيمكن أن يكون بالصناعة شيءٌ كأنه ذهبٌ أو فضة، وليس هو في الحقيقة لا ذهبٌ ولا فضة. وإذا كان ظهور القطن بالطبيعة وظهور الثوب بالصناعة فليس لهذه أن تعرض لهذه، [ولا لهذه أن تعرض لهذه]، والأمور موزونة،(٨٤) والصناعات متناهية، فإن ادُّعِي في شيءٍ من الصناعة ما يزيد عليها حتى تكون كأنها الطبيعة، احتيج إلى برهانٍ واضح، وإلى عِيان مصرِّح، لأنا نعلم أنه ما من صناعةٍ ولا علمٍ ولا سياسةٍ ولا نِحلةٍ ولا حالٍ إلا وقد حُمل عليها وزِيد فيها وكُذِب من أجلها بما إذا طلبتَ صحته بالبرهان لم تجد، أو بالعيان لم تقدر.

فأما أصحاب النسك ومن عُرف بالعبادة والصلاح، فقد ادُّعي لهم أن الصُّفر يصيَّر لهم ذهبًا، وشيئًا آخر يصيَّر فضة، وأن الله عز وجل يزلزل لهم الجبل، ويُنزِل لهم القَطْر، وينبت لهم الأرض، وغير ذلك مما هو كالآيات للأنبياء الذين يأتون من قبَل الله بالكتب والوصايا والأحكام والمواعظ والنصائح، وربما يسمي كثيرٌ من الناس ما يظهر للزهَّاد والعبَّاد من هذا الضرب كرامات ولا يسميها معجزات، والحقائق لا تنقلب بالأسماء فإن المسمَّى بالكرامة هو المسمَّى بالمعجزة والآية.

والخوض في هذا الطرَف قديم، وفصلُه في الحق شاقٌّ، والتنازع فيه قائم، والظن يعمل عمله، واليقين غيرُ مظفور به، ولا موصولٍ إليه. والطبيعة قد أوْلعت الناسَ بادعاء الغرائب، وبعثتهم على نصرتها بالرفق والخرق، والتسهيل واللَّجاج، والمواتاة والمَحْك، ولله في طي هذا العالم العلوي أسرارٌ وخفايا وغيوب ومكامن لا قوة لأحد من البشر بالحس ولا بالعقل أن يحوم حولها، أو يبلغ عمقها، أو يدرك كنهها، ومن تصرَّف عرَف، ومن عرَف سلِم. والسلام.

وحكى لنا أبو سليمان أن أرسطوطاليس كتب إلى رجل لم يشفِّعْه(٨٥) في رجل سأله الكلامَ له في حاجة: إن كنت أردتَ ولم تقدر فمعذور، وإن كنتَ قدرت ولم ترد فسوف يجيء وقتٌ تريد ولا تقدر.

وقال بعض الحكماء: لا تُرفِّهوا السِّفْلة فيعتادوا الكسل والراحة، ولا تجرِّئوهم فيطلبوا السرف والشغَب، ولا تأذنوا لأولادهم في تعلُّم الأدب فيكونوا لرداءة أصولهم أذهن(٨٦) وأغوص، وعلى التعلم أصبر. ولا جرم فإنهم إذا سادوا(٨٧) في آخر الأمر خربوا بيوت العِلْيَة أهل الفضائل.

وقال فيلسوف: للنفس خمسُ قوى: الحس والوهم والذهن والاختبار والفكر.

فأما الحس فلَحاق الأشياء بلا فحص، ولا يُحتاج في ذلك اللَّحاق إلى شيء آخر، إلا أن يكون ممنوعًا بمانع، وذلك إذا وجد شيئًا أبيض حكم بأنه أبيض بلا فكر ولا قياس.

وأما الوهم فإنه يقع على الأشياء بتوسُّط الحس.

وأما الاختبار فيوافق الفكر، كقولك: النفس لا تموت. فهذا قولٌ اختباريٌّ بعد الفكر، فإن كان هذا هكذا فالاختبار ليس بقياس، ولكنه أُفُق القياس.

وأما الذهن فإنه لا يهجم على أوائل الأشياء.

وقال آخر شبيهًا بهذا الكلام، ولا بأس أن يكون مضمومًا إليه، ليكون شمل الفائدة أكثرَ نظامًا وأقرب مرامًا.

قال: ليس للحواس والحركات فعلٌ دون أن تبعثَها القوة المميزة، فلذلك لا يحس السكران ولا النائم، وكذلك أيضًا البهائم فإنها لا تصيح إلا بعد أن يعرض في فكرها شيء، ولا تتحرك إلا بانبعاث القوة المميزة.

ولكل واحد من الحيوان ثلاثة أرواحٍ في ثلاثة أعضاء رئيسة: نفسيةٌ في الدماغ، وحيوانية في القلب، وطبيعية في الكبد.

وفي كل واحد منها قوةٌ مميِّزةٌ بها يتم عمله، فالتي في الدماغ هي العقل المميِّز الحارس للبدن، ومنه ينبعث الحسُّ والحركة، [والتي] في القلب تنبعث منها الحرارة الغريزية في جميع البدن، وزعموا أن تلك الحرارة هي الروح. والتي في الكبد هي موضع الهَضْم والنضج، وهي التي تنضج الطعام وتغيره وتحيله دمًا وتوزِّع في كل عضو ما هو ملائمٌ له، وبالجاذبة تجذِب، وبالحابسة تَحبس، وبالهاضمة تهضم، وبالدافعة تدفع.

فأما الدماغ فينقسم ثلاثة أقسام يَحجُز بينها أغشية؛ أحدها في مقدَّم الرأس موضع التخيُّل، والثاني في وسط الرأس موضع العقل والفكر والتمييز، والثالث في مؤخَّر الرأس موضعُ الحفظ والذكر والقبول. فكل واحد مما ذكرنا يخدم الآخر، وإن ضعُف أحدها ضعف لضعفه الآخر، وباعتدالهنَّ وسلامتهن قِوام البدن والنفْس.

ولكل واحدٍ منها آلةٌ بها يستعين على خدمة الآخر.

قال: فكما أن الرَّحَى إذا نقصتَ شيئًا منها أو زدتَ أُفسِد الطحن، إما بزيادة أو نقصان، كذلك سائرُ خدَمه وآلاته.

وقال: الدِّماغ مسكَن العقل، وخدَمه الحسُّ والحركة. والقلب مسْكن الحرارة الغريزية، وخدَمُه العروق الضوارب. والكبد مسْكن النُّضْج والهضم، وخدَمُها العروق غيرُ الضوارب.

وقال: النار تُحرِق، فإذا كانت موجودةً فالدخان والرماد موجودان، والدخان رمادٌ لطيف، والرماد دخانٌ كثيف.

وقال أبو سليمان: ذكر بعض البحاثين عن الإنسان أنه جامعٌ لكل ما تفرَّق في جميع الحيوان، ثم زاد عليها وفضِّل بثلاث خصالٍ: بالعقل والنظر في الأمور النافعة والضارة، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بوساطة النظر، وبالأيدي لإقامة الصناعات وإبراز الصور فيها مماثِلةً لما في الطبيعة بقوة النفس.

ولما انتظم له هذا كله جمعَ الحيل والطلب والهرب والمكايد والحذر، وهذا بدل السرعة والخفة التي في الحيوان، واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمِخلب والقَرن، واتخذ الجُنَن لتكون وقايةً من الآفات. والعقلُ ينبوعِ العلم، والطبيعة ينبوعِ الصناعات، والفكرُ بينهما قابلٌ منهما، مؤدٍّ من بعض إلى بعض، فصواب بديهة الفكر من صحة العقل، وصواب روية الفكر من صحة الطباع.

وقال أبو العباس: الناس في العلم على ثلاث درجات؛ فواحد يُلهَم فيُعلَّم فيصير مبدأ، والآخر يتعلم ولا يلهَم فهو يؤدي ما قد حفظ، والآخر يُجمع له بين أن يلهَم وأن يتعلم، فيكون بقليل ما يتعلم مكثرًا بقوة ما يلهَم.

وقال: الإنسان بين طبيعته وهي عليه ونفسِه وهي له منقسمٌ؛ فإن اقتبس من العقل قوَّى نورُه ما هو له من النفس، وأضعفَ ما هو عليه من الطبيعة، فإن لم يكن يَقتبس بقي حيران أو متهوِّرًا.

وقال سقراط: الكلام اللطيف ينبو عن الفهم الكثيف.

وحكى لنا أبو سليمان قال: قيل لفيلسوف: ما بال المريض إذا داواه الطبيب ودخل عليه فرح به وقبِل منه وكافأه على ذلك، والجاهلُ لا

يفعل ذلك بالعالم إذا علَّمه وبيَّن له؟ فقال: لأن المريض عالمٌ بما عند الطبيب، وليس الجاهل كذلك، لأنه لا يعلم ما عند العالم.

وقال ديوجانس لصاحبه: أما [تعلم] أن الحمام إذا كان سمائيًّا كان أغلى ثمنًا، وإذا كان أرضيًّا كان أقل ثمنًا؟[٨٨]

قال أبقاه الله: هذا مثلٌ في غاية الحسن والوضوح.

[وقال ديوجانس:[٨٩] المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمحفوظ للعدو.

وقال فيلسوف: التهاون باليسير أساسٌ للوقوع في الكثير.

وقال أفلاطون: مثَل الحكيم كمثَل النملة تجمع في الصيف للشتاء، وهو يجمع في الدنيا للآخرة.

وقال فيلسوف: من يصف الحكمة بلسانه ولم يتحلَّ بها في سره وجهره، فهو في المثَل كرجل رُزق ثوبًا فأخذ بطرَفه فلم يلبسه.

وقال السيد المسيح: إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله السوس، ولا تدركه اللصوص، فافعل.]

قال فيلسوف: إذا نازعك إنسانٌ فلا تُجِبْه، فإن الكلمة الأولى أنثى وإجابتَها فحلُها، وإن تركتَ إجابتها بترتَها وقطعتَ نسلها، وإن أجبتها ألقحتَها، فكم من ولدٍ ينمو بينهما في بطنٍ واحد!

وقال فيلسوف: إن البعوضة تحيا ما جاعت، وإذا شبعت ماتت.

وقال ديوجانس: إن تكن مِلحًا يصلِح، فلا تكن ذبابًا يُفسِد.

وقيل لديوجانس: من أين تأكل؟ فقال: من حيث يأكل عبدٌ له رب.

وقال ديوجانس: كن كالعروس تريد البيت خاليًا.

قيل لأرسطوطاليس: إن فلانًا عاقلٌ. قال: إذن لا يفرح بالدنيا.

وقيل لفيثاغورس: ما أملكَ فلانًا لنفسه! قال: إذن لا تصرعُه شهوتُه، ولا تخدعُه لذتُه.

وقيل لأسقلبيوس: فلانٌ له همة. قال: إذن لا يرضى لنفسه بدون القدْر.

ومدح رجل ثَيُودوروس على زهده في المال، قال: وما حاجتي إلى شيءٍ البخت يأتي به، واللؤم يحفظه، والنفقة تبدِّده، إن قلَّ غلبك الهمُّ بتكثيره، وإن كثر تقسَّمك في حفظه، يحسُدُك من فاته ما عندك، ويخدعُك عنه من يطمع فيه منك.

وقال سقراط: ما أحب أن تكون النفس عالمةً بكل ما أعدَّ لها. قيل: ولمَ؟ قال: لأنها لو علمتْ طارت فرحًا ولم يُنتفَع بها.

وقال ديوجانس: القلب ذو لطافة، والجسم ذو كثافة، والكثيف يحفظ اللطيفَ كضوء المصباح في القنديل.

وقال أفلاطون: العلم مصباح النفس، ينفي عنها ظلمة الجهل، فما أمكنك أن تضيف إلى مصباحك مصباحَ غيرك فافعل.

قال أبو سليمان: ما أحسنَ المصباحَ إذا كان زجاجُه نقيًّا، وضوءُه ذكيًّا، وزيتُه قويًّا، وذُبالُه سويًّا.

قيل لسقراط: ما أحسنُ بالمرء أن يتعلمه في صغره؟ قال: ما لا يسعُه أن يجهله في كبره.

قال أبو سليمان: ومن ها هنا أخذ من قال: يحسُن بالمرء التعلم ما حسنتْ به الحياة.

قيل لهوميروس: ما أصبرَك على عيب الناس لك! قال: لأنَّا استوينا في العيب، فأنا عندهم مثلُهم عندي.

وقيل للإسكندر: أي شيء أنت به أسرُّ؟ قال: قوتي على مكافأة من أحسن إليَّ بأحسن من إحسانه.

[وقال ديوجانس: إن إقبالك بالحديث على من لا يفهم عنك بمنزلة من وضع المائدة على مقبرة.]

ورأى ديوجانس رجلًا يأكل ويتذرَّع[٩٠] ويُكثر، فقال له: يا هذا، ليست زيادة القوة بكثرة الأكل، وربما ورد على بدنك من ذلك الضرر العظيم، ولكن الزيادة في القوة بجودة ما يقبل بدنُك منه على الملاءمة.

وقال ديوجانس: الذهب والفضة في الدار بمنزلة الشمس والقمر في العالم.

قال أبو سليمان: هذا مليح، ولكن ينبغي أن تبقى الشمس والقمر، فإنهما يُكسفان فيكونان سببًا لفسادٍ كثير، ويذوبان[٩١] ويُحميان فيكونان ضارَّين.

وقال أفلاطون: موت الرؤساء أصلح من رئاسة السِّفْلة.

وقال: إذا بخل الملِك بالمال كثر الإرجاف به.

وقال سولون: العلم صغير في الكمية كبيرٌ في الكيفية.

وقال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملتَه على وجهه كان له إتاء، ونفع فائض، ودَرٌّ سائحٌ، وغايةٌ محمودةٌ، وأثرٌ باقٍ. وهذه كلها كيفيات من تلك الكمية.

وقال أفلاطون: لا يسوس النفوسَ الكثيرةَ على الحق والواجب مَن لا يمكنه أن يسوس نفسَه الواحدة.

وقال سُقراط: النفس الفاضلة لا تطغَى بالفرح، ولا تجزع من الترَح، لأنها تنظر في كل شيء كما هو، لا تسلبُه ما هو له ولا تضيف إليه ما ليس منه. والفرح بالشيء إنما يكون بالنظر في محاسن الشيء دون مساوئه، والترَح إنما يكون بالنظر في مساوئ الشيء دون محاسنه،

فإذا خلص النظر من شوب الغلط فيما يُنظر فيه انتفى الطغيان والجزع وحصل النظام وربع.[٩٢]

قال ديوجانس: ينبغي للإنسان أن ينظر في المرآة، فإن كان وجهه حسنًا استقبح أن يضيف إليه فعلًا قبيحًا، وإن كان وجهه قبيحًا امتعض أن يضيف قبيحًا إلى قبيح حتى يتضاعف القبح.

وقال أبقراط: منزلة لطافة القلب في الأبدان بمنزلة لطافة الناظر في الأجفان.

وقال: للقلب آفتان، وهما الغم والهم؛ فالغم يعرض منه النوم، والهم يعرض منه السهر، وذلك أن الهم فيه فكرٌ في الخوف مما سيكون فمنه يغلب السهر، والغم لا فكر فيه لأنه إنما يحدث لما قد مضى وكان.

وقال أفلاطون: من يصحب السلطان فلا يجزع من قسوته، كما لا يجزع الغواص من ملوحة البحر.

قال أبو سليمان: هذا كلامٌ ضرُّه أكثر من نفعه، وإنما نفَّقه صاحبُه بالمثال والمثال يستجيب للحق كما يستجيب للباطل، والمعوَّل على ما ثبت بالدليل لا على ما يدَّعى بالتمثيل، وقد يجب أن يُجتنَب جانب السلطان بغاية الاستطاعة والإمكان، إلا إذا كان الدهر سليمًا من الآفات الغالبة. فقال له الأندلسي: وما صورة الزمان الخالي من الآفات؟ فقال: أن يكون الدين طريًّا،[٩٣] [و]الدولة مقبلة، والخصب عامًّا، والعلم

مطلوبًا، والحكمة مرغوبًا فيها، والأخلاق طاهرة، والدعوة شاملة، والقلوب سليمة، والمعاملات متكافئة، والسياسة مغروسة، والبصائر متقاربة. فقال: هذا لو صحَّ لارتفع الكونُ والفساد اللذان هما سوس هذا المكان. فقال: غلطتَ يا أبا عبد الله، فإن الكونَ والفساد يكونان على حاليهما، ولكنهما يقعان على معلومَين للصورة الثابتة، والسياسة العامة الغالبة، كأنك لا تحس بالفرق بين زمان خصب الأرض وجدبها. وكما أن للأرض خِصبًا وجدبًا كذلك للأحوال والأديان وللدول صلاحٌ وفساد، وإقبالٌ وإدبار، وزيادةٌ ونقصان. ولو كان ما خلتَه لازمًا لكنَّا لا نتمنى ملكًا عادلًا، ولا سائسًا فاضلًا، ولا ناظرًا ناظمًا، ولا مدبرًا عالمًا. وكان هذا لا يُعرف ولا يُعهد، ويكون في عُرض المُحال كونُه ووِجدانُه. وليس الأمر هكذا فقد عهدنا مِثل أبي جعفر بسجستان، وكان والله بصيرًا خبيرًا، عالمًا حكيمًا، يقظًا حذرًا، يَخلُق ويَفْري، ويَريش ويَبْري، ويكسو ويُعْري، ويُمرِض ويُبْري، وهكذا مثْل أبي جعفر بالأمس ملِك العراق في حَزامته وصرامته وقيامه في جميع أموره بنظره وتدبيره. وكذلك قد عهد الناس قبلنا مثل هذا، فلم يقع التعجب من شيء عليه مدار الليل والنهار.

وقال ديوجانس لصاحب له: اطلب في حياتك هذه العلم والمال تملِك بهما الناس، لأنك بين الخاصة والعامة، فالخاصة تعظمك لفضلك، والعامة تعظمك لمالك.[٩٤]

وقال أفلاطون: إن الله تعالى بقدْر ما يُعطِي من الحكمة يمنع الرزق. قال أبو سليمان: لأن العلم والمال كضرَّتين قلَّما يجتمعان

ويصطلحان، ولأن حظ الإنسان من المال إنما هو من قبيل النفس الشهَوية والسَّبُعية، وحظَّه من العلم إنما هو من قبيل النفس العاقلة، وهذان الحظَّان كالمتعانِدَين والضدَّين. قال: فيجب على الحصيف والمميِّز أن يعلم بأن العالِم أشرف في سِنْخه وعنصره، وأولِه وآخره، وسفره وحضرِه، وشهادتِه [ومغيبِه] (٩٥) من ذي المال. فإذا وُهب له العلمُ فلا يأس على [المال الذي يُجْزِئ منه اليسير، ولا يُلْهِب نفسه على] فوتِه حسرةً وأسفًا، فالعلم مدبِّر والمال مدبَّر، والعلم نفسي والمال جسدي، والعلم أكثر خصوصيةً بالإنسان من المال، وآفات صاحب المال كثيرةٌ وسريعة، لأنك لا ترى عالمًا سُرِق علمُه وتُرك فقيرًا منه، وقد رأيتَ جماعةً سُرقت أموالُهم ونُهبت وأُخِذت، وبقي أصحابها محتاجين لا حيلة لهم. والعلم يزكو على الإنفاق، ويصحب صاحبَه على الإملاق، ويهدي إلى القناعة، ويسبِل السِّتر على الفاقة، وما هكذا المال.

هوامش

(١) في كلتا النسختين: «وتنزال»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن ياقوت. وتبراك: ماء لبني العنبر، وقيل: موضع بحذاء تعشار.

(٢) في كلتا النسختين: «وتعشاء»، وهو تحريف، والتصويب عن ياقوت. وتعشار موضع بالدهناء.

(٣) في كتب اللغة أن التمراد هو بيت صغير في بيت الحمام لمبيضه.

(٤) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين، وقد أثبتناها عن كتب اللغة.

(٥) في «ب»: «وتوخ».

(٦) لم ترد هذه الكلمة في «أ».

(٧) «وأشهر» في كلتا النسختين.

(٨) يتنفج: يفتخر بما ليس فيه. وفي كلتا النسختين «ينتفخ».

(٩) في «ب»: الآصرة. والآصرة ما عطفك على إنسان من ود أو رحم أو نحوهما.

(١٠) متناصرة: أي ينصر بعضها بعضًا.

(١١) بالشدو: أي أخذ العلم وتلقيه.

(١٢) في كلتا النسختين: «وعليائه».

(١٣) في «أ»: «بسلطانه».

(١٤) في كلتا النسختين: «ابن مسعر البستي»، وهو تحريف. والبيستيُّ نسبة إلى بيستي من قرى الري.

(١٥) في «أ»: الريحاني.

(١٦) المهرجاني: نسبة إلى مهرجان من قرى أسفرايين أو مهرجان قذق، وهو كورة. وفي كلتا النسختين: «المهرجوني».

(١٧) في «أ»: «بالغت».

(١٨) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «والفوز»، مكان قوله «والمصير»، وهو خطأ من الناسخ.

(١٩) الحروف: الكلمات.

(٢٠) في كلتا النسختين: «ابن إبراهيم».

(٢١) في «أ»: «تغلقوا»، وفي «ب»: «فعلقوا»، وهو تصحيف. وفلفلوا: أي جعلوا الشعر شديد الجعودة، يقال: شعر مفلفل، إذا كان كذلك.

(٢٢) في «ب»: «يطبقوا».

(٢٣) دونه حدد: أي دفع ومنع.

(٢٤) الطارق: الذي يطرق الحصى مستخبرًا إياه عن الغيب.

(٢٥) الحازي: الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن، ومنه قولهم: على الحازي وقعت، أي على الخبير، والحازي أيضًا: الذي يزجر الطير.

(٢٦) في «ب»: «قلت»، وهو تحريف.

(٢٧) في «ب»: «مستقيمة»، وهو تحريف.

(٢٨) في «أ»: «عليه».

(٢٩) في «أ»: «إذا»، وهو تحريف.

(٣٠) ورد بعد قوله «الشريعة» في «أ»: «وما»، وهي زيادة من الناسخ لا معنى لها.

(٣١) في «أ»: «للأخرى». وهذان اللامان زيادة من الناسخ.

(٣٢) «النوية».

(٣٣) ورد في «أ» بعد قوله «العالم» قوله: «قبله»، ولا معنى لها هنا.

(٣٤) في «أ»: «لمن تدين»، وهو تحريف.

(٣٥) في «أ»: «على مع ما فيه»، وقوله «على» زيادة من الناسخ.

(٣٦) في «أ»: «ها هنا هيهات»، وقوله «ها هنا» زيادة من الناسخ.

(١) الارتغاء: أخذ الرغوة، وهذا مثل يُضرب لمن يظهر أمرًا وهو يريد خلافه، أو لمن يظهر طلب القليل وهو يريد الكثير، وقد سُئل الشعبي في رجل قبَّل أم امرأته فقال: يُسِرُّ حسوًا في ارتغاء، وقد حرمت عليه امرأته.

(٣٧) مقاودة للشريعة: أي مساوقة لها، يريد أنها تسير معها في قود واحد. وفي «ب»: «مقارنة».

(٣٨) في «أ»: «أم».

(٣٩) في كلتا النسختين: «ابن أحمر وزير مردامج»، وهو تحريف.

(٤٠) في كلتا النسختين: «الدين»، وهو تحريف.

(٤١) في كلتا النسختين: «الهجون».

(٤٢) يقال: دندن الذباب، إذا صوَّت وطنَّ، ودندن الرجلُ إذا نغَّم ولم يُفهم منه كلام.

(٤٣) في كلتا النسختين: «وقتلوا».

(٤٤) يعول: من عال الشيء فلانًا إذا ثقل عليه وغلبه وأهمه.

(٤٥) في كلتا النسختين: «قد عنونا»، وهو تحريف.

(٤٦) في «أ»: «بنصيبهم».

(٤٧) يطرح الشحناء: أي يلقيها في القلوب.

(٤٨) دبر: أي صنع كهيئة الطير.

(٤٩) الغيلة: الخديعة.

(٥٠) يعرد: ينكب ويحيد.

(٥١) في كلتا النسختين: «العقل».

(٥٢) يشير بالسبيلين والعلمين والنجدين إلى العقل والعلم.

(٥٣) من الزمان: أي في وقت من الزمان.

(٥٤) في نسخة: فاتحته، وفي نسخة: ما تحته، وهو تحريف في كلتيهما، وسياق الكلام الآتي بعدُ يقتضي ما أثبتنا.

(٥٥) المائق: الأحمق الغرُّ. وفي كلتا النسختين: «الفائق»، وهو تحريف.

(٥٦) «طرح الشر»: أي ألقاه في القلوب، وهذا تعبير قد سبق للمؤلف مثله، الجزء الثاني، الليلة السابعة عشرة، مريدًا به هذا المعنى.

(٥٧) يلوح لنا أن هذه الفِقر الآتية قد قرأها المؤلف على الوزير في ليلة أخرى غير الليلة السابعة عشرة السابقة، وإن لم يرد في الأصول ما يدل على ذلك. وإذن فتكون هذه هي الليلة الثامنة عشرة، والليلة الآتية بعد هي الليلة التاسعة عشرة، إذ لا يُعقل أن يطلب الوزير إلى المؤلف كتابة هذه الفقر في ليلة فيكتبها ثم يقرؤها في نفس الليلة، أو لعله كتبها واكتفى بإرسالها إلى الوزير.

(٥٨) لعلهم سموا هذا النكاح بالمساهاة لما فيه من معنى المساهاة وهي المسامحة وترك الاستقصاء في المعاشرة.

(٥٩) «الإفال»: صغار الإبل، الواحد أفيل.

(٦٠) «شرط المعزى»: صغارها.

(٦١) كان من حديث هذا الشعر أن هوازن كانت لا ترى زهير بن جذيمة إلا ربا، وكان يعشرهم فإذا كانت سوق عكاظ أتاها زهير بن جذيمة وأتته هوازن بالإتاوة، فأتته عجوز مرة بنحى فيه سمن، فذاقه فلم يرضَ طعمه، فدفعها بقوس كانت في يده، فسقطت على الأرض فانكشفت فغضب قومها، وآلى خالد بن جعفر أن يقتله، فلم يزل يعد لذلك عدته حتى أمكنته الفرصة فقتله، في حديث طويل ليس هنا موضع ذكره (انظره في بلوغ الأرب، ج١).

(٦٢) العقل: جمع عقال، وهي الناقة الفتية الحسنة. والهجائن من الإبل: البيض الكرائم.

(٦٣) الخدلج: المرأة الممتلئة الذراعين والساقين. والصدقة: المهر. والعقول: الديات، واحده عقل.

(١) «الخضرم»: السيد.

(٢) أدمى، بضم الهمزة وفتح الدال، وسكِّنت للشعر.

(٣) «المال الدثر»: الكثير الوافر. و«تغبر أقوال»: أي تبقى.

(٤) في اللسان أن أدمى أرض بظاهر اليمامة. وذكر ياقوت أقوالًا كثيرة في تعيين هذا الموضع، منها ما يوافق ما ورد في اللسان. ومطرق: باليمامة أيضًا.

(٥) البازل: الذي فطر نابه، أي انشقَّ بدخوله في السنة التاسعة.

(٦) يُلاحَظ أن هذه الكلمة قد ذُكرت فيما سبق.

(٧) يشير بقوله «معها حذاؤها» إلى أنها بعيدة المذهب قوية على المشي وقطع الأرض، تشبيهًا لها بالمسافر الذي معه حذاؤه وسقاؤه.

(٨) العفاص: وعاء من جلد يضع فيه المسافر نفقته.

(٩) القف: ما ارتفع من الأرض. ولم نجده مضافًا إلى النخلتين فيما راجعناه من الكتب، فلعل في هذا الاسم تحريفًا.

(١٠) النواضح: الإبل التي يُستقى عليها.

(١١) الأفلاء: جمع فلو بكسر الفاء، وهو المهر الذي لم يبلغ الفطام.

(١٢) الحضر بالضم: سرعة العدو.

(١٣) ورد في «ب» مكتوبًا على هامشها عند موضع هذه النقط ما يفيد أنه قد سقط من النسخة ثلاث ورقات.

(١٤) في «أ»: «تنوزع».

(١٥) في كلتا النسختين: «والأول أشهر من الثاني».

(١٦) في كلتا النسختين: «والتوسط الجامع».

(١٧) في كلتا النسختين: «القينة»، وهو تحريف. والقنية: ما يُقْتنى.

(١٨) يُلاحَظ أن قوله «يكن» هنا تامَّة، أي إن لم يوجد. وكذلك قوله «كان» الآتي.

(١٩) يريد أبا الفضل بن العميد.

(٢٠) كذا وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين.

(٢١) يشفعه: يقبل شفاعته.

(٢٢) أذهن: أي أجود ذهنًا. وفي «أ»: «أدهى»، وفي «ب»: «أذهب»، وهو تصحيف في كلتيهما.

(٢٣) في كلتا النسختين: «صاروا».

(٢٤) يلوح لنا أن في هذه الفقرة نقصًا سقط من الناسخ في كلتا النسختين.

(٢٥) آخر هذه الزيادة التي نقلناها عن «ب» بعض كلمات مطموسة لم نستطع تمييزها فلم نثبتها، فانظرها في هامش الورقة رقم ٢٠٤ من هذه النسخة.

(٢٦) يتذرع: يكثر ويفرط.

(٢٧) ويذوبان: أي الذهب والفضة.

(٢٨) ربع: أي ثبت ودام.

(٢٩) طريًّا: يريد غضًّا ناضرًا.

(٣٠) عبارة «ب»: فالخاصة تفضلك بما تعلم، والعامة تعظمك بما تملك.

(٣١) لم ترد هذه الكلمة في كلا الأصلين.

الليلة الثامنة عشرة[1]

وقال مرةً: تعالَ حتى نجعل ليلتنا هذه مُجونية، ونأخذ من الهزل بنصيب وافر، فإن الجِدَّ قد كدَّنا، ونال من قوانا، وملأَنا قبضًا وكربًا، هاتِ ما عندك. قلتُ: قال حَسْنون المجنون بالكوفة يومًا – وقد اجتمع إليه المُجَّان يصف كلُّ واحد منهم لذَّات الدنيا – فقال: أما أنا فأصف ما جرَّبتُه. فقالوا: هات. فقال: الأمن والعافية، وصفْعُ الصُّلْع الزُّرْق، وحكُّ الجرب، وأكل الرُّمَّان في الصيف، والطِّلاء في كل شهرين، وإتيان النساء الرُّعْن والصبيانِ الزُّعْر،[2] والمشيُ بلا سراويل بين يدَي من لا تحتشمه، والعربدة على الثقيل، وقلة خلاف من تحبُّه، [والتمرُّس[3] بالحمقى]، ومؤاخاة ذوي الوفاء، وترك معاشرة السِّفْلة.

وقال الشاعر:

أصـــبحتُ مـــن سُـــفْل الأنـــامِ — إذ بِعــــتُ عِرْضـــي بالطَّعــــامِ
أصــــبحتُ صـــفْعانًا[4] لئيـــ — ـــمَ الـــنفس مـــن قـــومٍ لئـــامِ
فـــي اسْـــتِ أم ربَّـــات الخيـــا — مِ ومـــن يحـــنُّ إلـــى الخيـــامِ
نفســـي تحـــنُّ إلـــى الهُـــلا — مِ[5] المـــوتُ مـــن دون الهُـــلامِ
مـــن لحـــم جَـــدْيٍ راضـــعٍ — رَخْـــص[6] المفاصـــل والعظـــام
هــــــذا لأولاد الخطـــــا — يـــــا والبغايـــــا والحـــــرام
حــــيِّ القــــدورَ الراســــيا — تِ وإن صَـــمِمْن عـــن الكـــلام

وقِصـــــاعَهنَّ[٧] إذا أتيـــــ ـــنَك طافحـــاتٍ بالســـلام

لهفـــي علـــى سِـــكْباجةٍ[٨] تشـــفي القلـــوب مـــن السَّـــقام

يـــا عـــاذلي أســـرفْتَ فـــي عـــذل الخليـــع المُسْـــتَهام

رجـــلٌ يَعَـــضُّ إذا نصحـــ ـــتَ لـه علـى فـأس اللِّجـام[٩]

دعْ عـذْل مـن يَعصـي العـذو لَ ولا يُصـــيخُ إلـــى المَـــلامِ

خلَـــع العِـــذارَ وراح فـــي ثـــوب المعاصـــي والأثـــام

شـــيخٌ يصـــلِّي قاعـــدًا ويَنيـــكُ عشـــرًا مـــن قيـــام

ويَعـــافُ نَيْـــكَ الغانيـــا تِ ويشـــتهي نَيْـــكَ الغـــلامِ

وتـــراه يُرْعَـــدُ حـــين يُـــذ كـــر عنـــده شـــهر الصِّـــيام

خوفًـــا مـــن الشـــهْر المعـــذِّ بِ نفسَـــه فـــي كـــل عـــامِ

سَـــلِس القِيـــاد إلـــى التَّصـــا بـــي والملاهـــي والحـــرام

مَـــــن للمـــــروءة والفُتـــــ ـــوَّة بعـــد مـــوتي والنِّـــدام؟

مـــــن للســـــماح وللرِّمـــــا حِ لـــدى الهَزاهـــز والحســـام

مـــــن لِلِّـــــواط وللحُـــــلا قِ[١٠] وللمُلِمَّـــــات العظـــــام؟

كان محمد بن الحسن الجرجاني متقعِّرًا في كلامه، فدخل الحمَّام يومًا فقال للقيِّم: أين الجُلَيْدة التي تسلخ بها الضَّويطة[١١] من الإخْفيق؟ قال: فصفع القيِّم قفاه بجلدة النَّوْرة وخرج هاربًا، فلما خرج من الحمَّام وجَّه إلى صاحب الشرطة فأخذ القيمَ وحبسه، فلما كان عشاء ذلك اليوم كتب إليه القيمُ رقعةً يقول فيها: قد أبرمني المحبوسون بالمسألة عن

السبب الذي حُبستُ له، فإما خلَّيْتني وإما عرَّفتهم. فوجَّه مَن أطلقه، واتصل الخبر بالفتح فحدَّث المتوكِّل، فقال: ينبغي أن يُغْنَى هذا القيمُ عن الخدمة في الحمَّام. وأمر له بمائتي دينار.

قال: [١٢] وكان بالبصرة مُخنَّثٌ يَجمع[١٣] ويعشق بعض المهالبة، فلم يزل المخنَّثُ به حتى أوقعه، قال: فلقِيتُه من غدٍ فقلت له: كيف [كانت وقعة الجُفْرة[١٤] عندكم البارحة؟ فقال: لمَّا تدانت] الأشخاص، ورقَّ الكلام، والتفَّت الساق بالساق، ولُطِّخ باطنُها بالبُزاق، وقُرِع البَيْضُ[١٥] بالذُّكور، وجَعلت الرماح تَمُور؛[١٦] صبر الكريمُ فلم يَجْزَع، وسلَّم طائعًا فلم يُخْدع. ثم انصرف القوم على سِلْم، بأفضل غُنْم، وشُفيت الصدور، وسكنت حرارة النفوس، ومات كلُّ وجْد، وأُصيب مَقْتل كلِّ هَجْر، واتَّصل الحبل، وانْعقد الوصل. قال: فلو كان أَعَدَّ هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهر لكان قد أجاد.

وقال أبو فرعون الشاشيُّ:

أنا أبو فرعون فاعرفْ كُنْيَتي	حلَّ أبو عَمْرة وَسْط حُجْرتي
وحلَّ نسْجُ العنكبوتِ بُرْمتي	أَعْشبَ تنُّوري وقلَّتْ حِنْطَتي
وحالَفَ القَمْل زمانًا لِحْيَتي	وضعُفَتْ مِن الهُزال ضَرْطتي
وصار تُبَّاني[١٧] كَفاف خُصْيَتي	أيْرُ حِمارٍ في حِرِ امِّ عِيشَتي

[أبو عمرة: صاحب شرطة المختار بن عُبيد، كان لا ينزل بقوم إلا اجتاحهم، فصار مثلًا لكل شؤم وشر. ويقال أيضًا: إن أبا عمرة اسم الجوع، هكذا حدثني به أبو الحسن البصري.]

وأنشد بشر بنُ هارون في أبي طاهر:

أبـا عبـدِ الإلـه وأنـتَ حـرٌّ   مـن الأحـرار منْـزوعُ القِـلادةْ
سـألتُك بالإلـه لتُخبرنِّـي   أجهلُـك مسـتفادٌ أمْ وِلادةْ؟
فـإن يـكُ فيـك مولـودًا فعُـذرٌ   وإن يـك حادثًـا لـك باسـتفادةْ
فواعجبًـا يزيـدُ النـاسُ فضـلًا   وأنـت تزيـد نقصًـا بالزِّيـادةْ!

حكى الصُّولي: حدثنا ميمون بن مِهران قال: كان معنا مخنَّثٌ يلقَّب مِشْمِشة – وكان أميًّا – فكتب بحضرته رجلٌ إلى صديق له كتابًا، فقال المخنث: اكتب إليه: مشمشة يقرأ عليك السلام. فقال: قد فعلتُ – وما كان فعل – فقال: أرني. فقال: هذا اسمك. فقال: هيهات، اسمي في الكتاب شبه داخل الأذن. فعجبنا من جودة تشبيهه.

قال نضلة: مررت بكنَّاسَينِ أحدهما في البئر والآخر على رأس البئر، وإذا ضجة فقال الذي في البئر: ما الخبر؟ فقال: قُبِض على علي بن عيسى؟ فقال: من أقعدوا بدله؟ قال: ابن الفرات. قال: قاتلهم الله! أخذوا المصحف ووضعوا بدله الطُّنْبور.

[كتب أبو العيناء إلى ابن مكرم: قد أصبتُ لك غلامًا من بني ناعظ، ثم من بني ناشرة، ثم من بني نهد. فكتب إليه: ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

وقدم رجلٌ مع امرأة إلى القاضي ومعها طفلٌ فقالت: هذا ابنه. فقال الرجل: أعز الله القاضي، ما أعرفه. فقال القاضي: اتَّقِ الله فإن

النبيﷺ يقول: الولد للفراش، وللعاهر الحجر. فهذا وأمه على فراشك. قال الرجل: ما تَنايَكْنا إلا في الاسْت، فمن أين لي ولد؟ فقالت المرأة: أعزَّ الله القاضي، قل له: ما رأيتَ؟ يُعَرِّفه. (١٨) فكفَّ الرجل، وأخذ بيد ولده وانصرف.] (١٩)

قال: وسمعتُ آخرَ يقول لشاطر: (٢٠) اسكت، فإن نهرًا جرى فيه الماء لا بدَّ أن يعود إليه. فقال له الآخر: حتى يعود إليه الماء [تكون] قد ماتت ضفادعه.

ومن كلام الشطَّار: أنا البغل الحرون، والجمل الهائج، أنا الفيل المُغْتلِم، لو كلمني عدُوي لعقدتُ شعر أنفه إلى شعر استِه حتى يَشَمَّ فُساءَه كأنه القُنْفُذة.

وقال بعض القُصَّاص: في النبيذ شيء من الجنة؛ الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ والنبيذ يُذهب الحزَن.

قال: (٢١) وسُمعتْ ماجنةٌ تقول: ضُرَّ وسُرَّ، وقُدْ وارقُدْ، واطَّرِح واقتَرِحْ.

قال ابن أبي طاهر: دعا مُرَّة قومًا وأمر جاريتَه أن تبخِّرهم، فأدخلتْ يدها في ثوب بعضهم فوجدتْ أَيْرَه قائمًا، فجعلتْ تَمرُسه وتلعبُ به وأطالت، فقال مولاها: أَيْشِ آخرُ هذا العُود، أما احترق؟ قالت: يا مولاي، هو عُقْدة.

قال مَزيَد: كان الرجل فيما مضى إذا عشق الجارية راسلها سنةً، ثم رضِي أن يَمضغ العِلْك الذي تَمْضَغه، ثم إذا تلاقيا تحدَّثا وتناشدا

الأشعار، فصار الرجلُ اليوم إذا عشِق الجارية لم يكن له همٌّ إلا أن يرفع رجلَها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة.

قال ابن سيرين: كانوا يَعشقون من غير ريبة، فكان لا يُستنكر من الرجل أن يجيء فيحدِّث أهل البيت ثم يذهب. قال هشام: ولكنهم لا يَرضوْن اليوم إلا بالمواقعة.

قال الأصمعيُّ: قلتُ لأعرابي: هل تعرفون العشقَ بالبادية؟ قال: نعم، أيكون أحدٌ لا يعرفه؟ قلتُ: فما هو عندكم؟ قال: القُبلة والضمَّة والشمَّة. قلتُ: ليس هو هكذا عندنا. قال: وكيف هو؟ قلت: أن يتفخَّذ الرجلُ المرأةَ فيُباضعها. فقال: قد خرج إلى طلب الولد.

قال بشر بن هارون:

إن أبــا موســى لـــه لحيـــةٌ   تــدخل فـــي الجُحْــر بــلا إذنِ
وصــورةٌ فــي العــين مِثــل القــذَى   ونَغمـــةٌ كـــالوَقْر فـــي الأذْن
كــم صــفعةٍ صــاحتْ إلــى صــافعٍ   بالنعــل مــن أَخْدَعــه: خُــذْني

وقال لنا أبو يوسف: قال جحظة: حضرتُ مجلسًا فيه جماعةٌ من وجوه الكتَّاب، وعندنا قَيْنةٌ محسنةٌ حاضرة النادرة، فقال لها بعضهم: بحياتي عليك غنِّي لي:

لستَ مني ولستُ منك فدَعْني   وامضِ عنـي مصـاحَبًا بسـلامِ

فقالت: أهكذا كان أبوك يغنِّيك؟ فأخجلتْه.

اشترى مَدينيٌ رُطَبًا فأخرج صاحبُ الرطب كَيْلَجةً صغيرةً ليكيل بها، فقال المديني: والله لو كِلْتَ بها حسناتٍ ما قَبلتُها.

سئل أبو عُمارة قاضي الكوفة: أيُّ بنيك أثقل؟ قال: ما فيهم بعد الكبير أثقل من الصغير إلا الأوسط.

اجتمع جماعةٌ عند جامعٍ الصَّيْدناني، فقال أحدهم: ليس للمخمور أنفع من سَلْحه. فقال جامع: أخذتَها والله من فمي.

قال رجل لرؤبة: أتهمزُ الخُرْأَ؟ قال: بإصْبعِك يابن الخبيثة.

وقف أعرابيٌ على قوم يُسائلهم، فقال لأحدهم: ما اسمك؟ قال: مانع. وقال للآخر: ما اسمك؟ قال: مُحْرِز. وقال للآخر: ما اسمك؟ قال: حافظ. قال: قبحكم الله! ما أظن الأقفال إلا من أسمائكم.

[من كلام العامة: منارةُ الإسكندرية عندك خَشْخاشة فارغة]. [٢٢]

قال جحظة: قرأتُ على فصٍّ ماجنةٍ: ليلة عُرْسي ثَقبوا بالأَيْر كُسِّي. وعلى فصٍّ ماجنةٍ أخرى: السَّحْق أَخْفَى والنَّيْك أَشْفى.

وقال جُحا لأبي مسلم صاحب الدعوة: إني نذرتُ إن رأيتُك أن آخذ منك ألف درهم. فقال: رأيتُ أصحاب النذور يُعطُون لا يأخذون. وأمر له بها. [٢٣]

قال السَّريُّ: رأيت المخنث الذي يُعْرف بالغريب[٢٤] وإنسانٌ من العامة قد آذاه وطال ذلك، فالتفتَ إليه وقال له: يا مشقوق، نعلُك

زائفة، وقميصُك مقرون الحاجبين، وإزارك صَدفٌ أزرق، وأنت تَتَلاهى بأولاد الملوك والأمراء. قال السريُّ: فخجل العاميُّ ومر، فقلتُ له: فسِّر لي هذا الغريب. فقال: امضِ إلى ثعلب. فقلت: ليس هذا من عمله، فسِّره لي. قال: النعل الزائفة(٢٥) [التي تجرُف التراب جرفًا، والقميص المقرون هو الخلَق] الذي في كتفيه رقعتان أجود منه، فهما تُفْصحان بيانًا، والإزار صدفٌ أزرق أي مخرَّقٌ مفتَّت. فقلتُ: فقولُك: يا مشقوق؟ قال: قَطِيع الظَّهْر.

قيل للشَّعبي: أيجوز أن يصلَّى في البِيعة؟ قال: نعم، ويجوز أن يُخْرأ فيها.

وقال سعيد بن جُبير: القُبلة رسول الجماع.

وقال الرشيد للجمَّاز: كيف مائدة محمد بن يحيى – يعني البرمكيَّ؟ قال: شبرٌ في شبر، وصحفته من قشر الخشخاش، وبين الرغيف والرغيف مَضرب كرة، وبين اللون واللون فترة نبي. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. فضحك وقال: لحاك الله من رجل!

قال نضلة: دخلت ساقيةً في الكرخ فتوضأت، فلما خرجت تعلق السقَّاء بي وقال: هات قطعة. فضرطتُ ضرطةً وقلت: خلِّ الآن سبيلي فقد نقضتُ وضوئي. فضحك وخلاني.

وعد رجلٌ بعض إخوانه أن يهدي إليه بغلًا، فطال مَطْلُه، فأخذ قارورة وبال فيها وجاء إلى الطبيب وقال: انظر إلى هذا الماء، هل يُهدِي إليَّ بعض إخواني بغلًا؟

حدثنا ابن الخلال البصري قال: سمعت ابن اليعقوبي يقول: رأيت على باب المِربد خالدًا الكاتب وهو ينادي: يا معشر الظرفاء والمتخلقين بالوفاء، أليس من العجب العجيب والنادر الغريب أن شِعري يُزنَى به ويُلاط منذ أربعين سنةً وأنا أطلب درهمًا فلا أُعطى. ثم أنشأ يقول:

أُحرم منكم بما أقول وقد ... نال به العاشقون من عشقوا

صرتُ كأني ذبالةٌ نصبتْ ... تضيء للناس وهي تحترقُ

وسمعت الماجن المعروف بالغراب يقول: ويلك أيش في ذا؟ لا تختلط الحنطة بالشعير، أو يُصنع الباذنجان قرعًا، أو يتحول الفُجل إلى الباقلاء، ويصير الخرنوب إلى الأَرَندج. (٢٦)

وسمعت دجاجة المخنث يقول لآخر: إنما أنت بيتٌ بلا باب، وقدمٌ بلا ساق، وأعمى بلا عصا، ونارٌ بلا حطب، ونهرٌ بلا معبر، وحائطٌ بلا سقف.

وشتم آخر فقال: يا رأس الأفعى، ويا عصا المُكاري، ويا بُرنس الجاثَلِيق،(٢٧) يا كَوْدن(٢٨) القصَّار، يا بَيْرَم(٢٩) النجار، يا ناقوس النصارى، يا ذرور العين، يا تخت(٣٠) الثياب، يا طعن الرمح في الترس، يا مغرفة القدور، ومكنسة الدور، لا تبالي أين وُضعت، ولا أيَّ جُحْرٍ دخلت، ولا في أي خانٍ نزلت، ولا في أي حمام عملت. إن لم تكن في الكوة مِتْرسًا

فتحَ اللصوصُ الباب. يا رحًى على رحًى، ووعاءً في وعاء، وغطاءً على غطاء، وداءً بلا دواء. وعمًى على عمًى، ويا جهد البلاء، ويا سطحًا بلا ميزاب، ويا عودًا بلا مضراب، ويا فمًا بلا ناب، ويا سكينًا بلا نصاب، ويا رعدًا بلا سحاب، ويا كوةً بلا باب، ويا قميصًا بلا مئزر، ويا جسرًا بلا نهَر، ويا قُرًّا على قر، ويا شط الصراة،[٣١] ويا قصرًا بلا مِسناه،[٣٢] ويا ورق الكمَاه،[٣٣] يا مطبخًا[٣٤] بلا أفواه. [٣٥] يا ذنب الفار، يا قدرًا بلا أبزار، يا رأس الطومار، يا رسولًا بلا أخبار، يا خيط البواري،[٣٦] يا رحًى في صحاري، يا طاقاتٍ بلا سواري.

دخل أبو نواس على عنان جارية الناطفيِّ فقال لها:

لـــو رأى فـــي البيـــت جُحـــرًا لنـــــزا حتـــــى يموتـــــا[٣٧]
أو رأى فـــي البيـــت ثَقبًـــا لتحـــــوَّلْ[٣٨] عنكبوتـــــا

فأجابته:

زوِّجـــــوا هـــــذا بـــــألفٍ وأظـــــن الألـــــف قوتـــــا
قبـــــل أن ينقلـــــب الـــــدا ءُ فـــــلا يـــــأتي ويُـــــوتَى

فقال – أدام الله دولته، وبسط لديه نعمته: قدِّم هذا الفن على غيره، وما ظننتُ أن هذا يطرد في مجلسٍ واحد، وربما عِيب هذا النمطُ كل العيب، وذلك ظلم، لأن النفس تحتاج إلى بِشر. وقد بلغني أن ابن عباس كان يقول في مجلسه بعد الخوض في الكتاب والسنة والفقه والمسائل: احْمِصوا. وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل النفس لئلا يلحقها

كَلال الجِد، ولتقتبس نشاطًا في المستأنف، ولتستعدَّ لقبول ما يرد عليها فتسمع. والسلام.

هوامش

(١) هذا العد حسبما هو وارد في «أ»، وقد سبق لنا استظهار غير ذلك في الجزء الثاني، الليلة السابعة عشرة، فانظرها. ويُلاحَظ أن المؤلف قد أتى في هذه الليلة ببعض من المجون الساقط والنوادر المبتذلة، ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها واكتفينا بما لطف ورقَّ ولم ينْبُ عنه الذوق، على أن المؤلف قد اعتذر عن ذلك في آخر الليلة مستندًا إلى أقوال بعض الصحابة.

(٢) الزعر: جمع أزعر، وهو الذي لا شعر له.

(٣) في الأصل: «والتمري»، وهو تحريف، إذ لا يناسب معناه سياق ما يأتي بعد. والتمرس بالحمقى: الاحتكاك بهم لإظهار ما عندهم من الحماقة تفكُّهًا بهم.

(٤) صفعانًا: أي يُصفع من الناس لذلَّته وخسته.

(٥) الهلام: مرق الكباج يبرَّد ويصفَّى من الدهن.

(٦) رخص المفاصل: لينها.

(٧) جعل ما في القصاع من الثريد واللحم كأنه تحية وتسليم على من تقبل عليه.

(٨) السكباجة: مرق يُعمل من اللحم والخل، وهو فارسي معرب.

(٩) فأس اللجام: الحديدة القائمة في حنك الدابة.

(١٠) الحلاق: قلة شبع الأتان والمرأة من إتيانهما.

(١١) الضويطة: الحمأة في أصل الحوض. والإخقيق: الشق في الأرض، فلعله أراد الجليدة التي يُزال بها الوسخ من الجسد (مجازًا). وفي كلتا النسختين: «الطوطة من الأحقيق»، وهو تصحيف، إذ لم نجد له معنى يناسب السياق، فلعل الصواب ما أثبتنا.

(١٢) يُلاحَظ أنه قد سقط من الناسخ اسم القائل هنا، إذ لم يسبق له ذكر.

(١٣) أي يجمع بين المتعاشقين.

(١٤) الجفرة: موضع بالبصرة كانت به وقعة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، وكان على جيش عبد الملك خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وخليفة مصعب بن الزبير على البصرة عبد الله بن عبيد الله بن معمر التميمي، ودامت هذه الوقعة أربعين يومًا، وكان النصر فيها لأهل البصرة. وفي كلتا النسختين: «الحفرانة»، وهو تحريف. وفي الكلام تورية كما لا يخفى.

(١٥) يشير إلى قول مهلهل بن ربيعة:

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

(١٦) يريد الشاعر بالذكور: السيوف، وبالبيض: التي تُلبس على الرأس في الحرب. وفي الكلام هنا تورية لا تخفى على ذي فهم.

(١٧) تمور: أي تضطرب.

(١٨) التبَّان: سراويل صغير يستر العورة المغلَّظة. وكفاف الشيء: مثله. يقول إن سراويله بمقدار خصيتيه، يشير إلى فقره وقلة مقدرته على توسيع سراويله.

(١٩) يعرفه: أي يعرِّف ما رأى، أي يذكر العلامات التي رآها في هذا الموضع.

(٢٠) يُلاحَظ أن آخر هذه القصة وكثيرًا من ألفاظها مطموس الحروف في نسخة «ب»، وهي التي وردت فيها وحدها، فلتراجع في هامش ورقة ٢١٠ من هذه النسخة.

(٢١) الشاطر: هو من أعيا أهله خبثًا.

(٢٢) يُلاحَظ أنه لم يذكر هنا اسم القائل، فلعله سقط من الناسخ إذ لم يسبق له ذكر.

(٢٣) موضع هذه النقط في «ب» كلام مطموس لم نستطع قراءته، فليراجع في هامش ورقة ٢١١ من النسخة المذكورة.

(١) في «ب»: بألف درهم.

(٢) بالغريب: أي بالغريب من الألفاظ. هذا ما يظهر لنا من سياق القصة، أو لعله لقب له.

(٣) لعل ذلك مأخوذ من زافت الحمامة تزوف إذا سحبت ذنبها على الأرض ونشرت جناحيها. والذي في كلتا النسختين: النعل الرافه، ولم نجد له معنًى فيما راجعناه من الكتب، فلعل الصواب ما أثبتنا.

(٤) هذه الكلمة مهملة الحروف من النقط في الأصل، وقد أثبتناها على هذا الوجه لاتفاق الخرنوب والأرندج في اللون. والأرندج: الجلد الأسود، وهو معرب.

(٥) الجاثليق: من رؤساء النصارى، معروف.

(٦) الكودن: البغل.

(٧) بيرم النجار: عتلته.

(٨) تخت الثياب: ما تصان فيه.

(٩) الصراة: نهر بالعراق.

(١٠)المسناة: المرقاة، من السناء بالمد، وهو العلو والرفعة.

(١١)الكماة مخففة: الكمأة بالهمز.

(١٢)في الأصل: «مصرجًا»، وهو تحريف.

(١٣)الأفواه: التوابل.

(١٤)البواريُّ بتشديد الياء: ضرب من الحصر تُعمل من البردي، معروفة بمصر إلى اليوم.

(١٥)في كتاب أخبار أبي نواس لابن منظور: اجتمع أبو نواس مع عنان فأقبل عليها وقال:

لـــو رأى فـــي الســـقف صـــدعًا   لنـــــزا حتـــــى يموتـــــا

(١٦)كذا وردت هذه الكلمة في الأصل. ولا يخفى أن تسكين الفعل لضرورة الشعر.

الليلة التاسعة عشرة

ورسم بجمع كلماتٍ بوارع، قصارٍ جوامع، فكتبتُ إليه أشياء كنت أسمعها من أفواه أهل العلم والأدب على مرِّ الأيام في السفر والحضر، وفيها قرعٌ للحس، وتنبيهٌ للعقل، وإمتاعٌ للروح، ومعونةٌ على استفادة اليقظة، وانتفاعٌ في المقامات المختلفة، وتمثلٌ للتجارب المخلَّفة، وامتثالٌ للأحوال المستأنفة.

من ذلك:

«الحمد لله» مفتاح المذاهب. البِرُّ يستعبِد الحُر. القناعة عز المعسر. الصدقة كنز الموسر. ما انقضت ساعةٌ من أمسك إلا ببضعةٍ من نفسك. درهمٌ ينفع خيرٌ من دينار يضر. من سره الفساد ساءه المعاد. الشقي من جمع لغيره فضنَّ على نفسه بخيره. زد من طول أملك في قصر عملك. لا يغرنَّك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة. من لم يعتبر بالأيام لم ينزجر بالمَلام. من استغنى بالله عن الناس أمن من عوارض الإفلاس. من ذكر المنيَّة نسي الأمنيَّة. البخيل حارس نعمته، وخازن ورثته. لكل امرئ من دنياه ما يعينه على عمارة أخراه. من ارتدى بالكفاف اكتسى بالعفاف. لا تخدعنَّك الدنيا بخدائعها، ولا تفتننَّك بودائعها. رب حجة تأتي على مهجة، ورُبَّ

فرصة تؤدي إلى غصة. كم من دم سفكه فم! كم إنسان أهلكه لسان! رب حرف أدى إلى حتف. لا تفْرط فتسقط. الزم الصمت وأخْف الصوت. من حسُنت مساعيه طابت مراعيه. من أعز فَلسه أذل نفسه. من طال عدوانه، زال سلطانه. من لم يستظهر باليقظة، لم ينتفع بالحفظة. من استهدى الأعمى عمي عن الهدى. من اغتر بمِحاله قصر في احتياله. زوال الدول باصطناع السِّفَل. من ترك ما يعنيه دُفع إلى ما لا يعنيه. ظلم العمال من ظُلمة الأعمال. من استشار الجاهل ضل، ومن جهل موضع قدمه زل. لا يغرنك طول القامة مع قصر الاستقامة، فإن الذرة مع صغرها أنفع من الصخرة على كبرها. تجرع من عدوك الغصة إن لم تنل منه الفرصة، فإذا وجدتها فانتهزها قبل أن يفوتك الدَّرَك أو يصيبك الفلَك، فإن الدنيا دولٌ تبنيها الأقدار ويهدمها الليل والنهار. من زرع الإحن حصد المحن. من بعد مطمعه قرب مصرعه. الثعلب في إقبال جده يغلب الأسد في استقبال شده. رب عطب تحت طلب. اللسان رِقُّ الإنسان. من ثمرة الإحسان كثرة الإخوان. من سأل ما لا يجب أجيب بما لا يحب، وأنشدتُ:

وليس لنا عيبٌ سوى أن جُودنا ... أضرَّ بنا والبأسَ من كل جانبِ

فأفنى الندى أموالنا غير ظالمٍ ... وأفنى الرَّدَى أعمارنا غير عائب

أبونا أبٌ لو كان للناس كلهم ... أبٌ مثله أغناهم بالمناقب

قال حميد بن الصيمري لابنه: اصحب السلطان بشدة التوقي كما تصحب السبع الضاري والفيل المغتلم والأفعى القاتلة، واصحب الصديق

بلين الجانب والتواضع، واصحب العدو بالإعذار إليه والحجة فيما بينك وبينه، واصحب العامة بالبر والبشر واللطف باللسان.

وقَّع عبد الحميد الكاتب على ظهر كتاب: يا هذا، لو جعلتَ ما تحمله القراطيس من الكلام مالًا حويت جمالًا وحزت كمالًا.

ووقَّع السفاح مرة: ما أقبح بنا أن تكون الدنيا لنا وحاشيتنا خارجون منها، فعجل أرزاقهم وزد فيها على قدر كل رجل منهم إن شاء الله.

قال الحسن بن علي: عنوان الشرف حسن الخلف.

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام: إن لم تجفُ فقلما تصفو.

وقال أعرابي: النخلة جذعها نماء،[١] وليفها رشاء، وكَرَبها[٢] صِلاء، وسعَفها ضياء،[٣] وحملها غذاء.

وقال الأصمعي: سمعت كسَّاحًا[٤] يقول لغلام له: ألم أضع إزارك؟ ألم أصنع عود مجرفتك؟ ألم أجعلك كسَّاحًا على حمارين؟

وُجِد كتابٌ باليمن فيه: أنا فلانة بنت فلان التُّبَّعي، كنت آكل البقل الرطب من الهند وأنا باليمن، ثم جعنا حتى اشترينا مكُّوك[٥] بُرٍّ بمكوك دُر من يوسف بن يعقوب بمصر، فمن رآنا فلا يغتر بالدنيا.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لرجل من بني تغلب يوم صفين: أآثرتم معاوية؟ فقال: ما آثرناه، ولكنا آثرنا القَسْب[٦] الأصفر، والبُر الأحمر، والزيت الأخضر.

قيل للحسن بن عليٍ رضي الله عنه لما صالح معاوية: يا عارَ المؤمنين. فقال: العار خيرٌ من النار.

نظر الحجاج يومًا على المائدة إلى رجل وَجَأ عنق رجل آخر فدعا بهما، فقال للواجئ: علام صنعت؟ فقال: غصَّ بعظمٍ فخفت أن يقتله فوجأتُ عنقه فألقاه. فسأل الآخر فقال: صدق. فدعا بالطباخ فقال له: أتدع العظام في طعامك حتى يغص بها؟ فقال: إن الطعام كثير وربما وقع العظم في المرق فلا يُزال. قال: تصب المرق على المناخل. فكان يفعل. [٧]

قال سلمة بن المحبِّق: [٨] شهدت فتح الأُبلَّة فوقع في سهمي قِدر نحاس، فنظرت فإذا هي ذهبٌ فيها ثمانون ألف مثقال فكتبت في ذلك إلى عمر، فأجاب بأن يُحلَّف سلمة بأنه أخذها يوم أخذها وهي عنده، فإن حلف سُلِّمت إليه وإلا قُسِمت بين المسلمين، قال: فحلفت فسُلمت إليَّ، فأصول أموالنا اليوم منها.

قال بعض الحكماء: لا يصبر على المروءة إلا ذو طبيعةٍ كريمة. [٩]

أصاب عبد الرحمن بن مدين – وكان رجل صدق بخراسان – مالًا عظيمًا فجهَّز سبعين مملوكًا بدوابهم وأسلحتهم إلى هشام بن عبد الملك، ثم أصبحوا معه يوم الرحيل، فلما استوى بهم الطريق نظر إليهم فقال: ما ينبغي لرجل أن يتقرب بهؤلاء إلى غير الله. ثم قال: اذهبوا أنتم أحرارٌ، وما معكم لكم.

وقال أعرابي: مَنْ قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذلَّ لقدرك عزَّه.

كتب زياد بن عبد الله الحارثي إلى المهدي:

أناناديتُ عفوك من قريبٍ ... كما ناديتُ سخطك من بعيد

وإن عاقبتني فلسوء فعلي ... وما ظلمتْ عقوبةُ مستقيد

وإن تصفح فإحسانٌ جديدٌ ... عطفت به على شكرٍ جديد

وقال رجل لمحمد بن نحرير: أوصني. فقال: اسمع ولا تتكلم، واعرف ولا تُعرِّف، واجلس إلى غيرك ولا تجلسه إليك.

وقال رجل لابن أسيد[١٠]القاضي: إن أمي تريد أن توصي فتحضُر وتكتب. فقال: وهل بلغتْ مبلغ النساء؟

ودخل صاحب المظالم بالبصرة على رجلٍ مُبرْسَم[١١] وعنده طبيبٌ يداويه، فأقبل على الطبيب وأهل المريض وقال: ليس دواءٌ المبرسم إلا الموت حتى تَقِلَّ حرارةُ صدره، ثم حينئذٍ يعالَج بالأدوية الباردة حتى يَستبلَّ.

واجتاز به بائع دُرَّاجٍ فقال: بكم تبيع الدُّرَّاجة؟ فقال: بدرهم. فقال له: أحسِن. قال: كذا بعتُ. قال: نأخذ منك اثنتين بثلاثة. قال: هما لك. قال: يا غلامُ، خذ منه فإنه يُسهِّل البيع.

ودخل حجاج بن هارون على نجاحٍ الكاتب فذهب ليقبل رأسه، فقال له: لا تفعل فإن رأسي مملوءٌ بالدهن. فقال: والله لو أن عليه ألف رطلٍ خَراءً لقبلته.

قُدِّم لابن الحَسحاس سِكباجةٌ[١٢] فقال لصديق له: كلْ فإنها أمُّ القِرى.

وعزَّى ابن الحسحاس صديقًا له ماتت ابنته فقال: من أنتَ حتى لا تموت ابنتك البظراء! قد ماتت عائشة بنت[١٣] النبيﷺ.

أخذ يعقوب بن الليثيِّ في أول أمره رجلًا فاستصفاه ثم رآه بعد زمان، فقال له: أبا فلان، كيف أنت الساعة؟ قال له: كما كنت أنت قديمًا. قال: وكيف كنت أنا؟ قال: كما أنا الساعة. فأمر له بعشرة آلاف درهم.

قال ابن المبارك: إذا وضع الطعام فقد أُذِن للآكل.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن العرب لا تصلح ببلاد لا تصلح بها الإبل.

وقال إبراهيم بن السِّندي: نظر رجلٌ من قريش إلى صاحب له قد نام في غداةٍ من غدوات الصيف طيِّبةِ النسيم، فركضه برجله وقال: ما لك تنام عن الدنيا في أطيب وقتها؟! نم عنها في أخبث حالاتها، نم في نصف النهار لبُعدك عن الليلة الماضية والآتية، ولأنها راحةٌ لما قبلها من التعب وجمامٌ لما بعدها من العمل، نمتَ في وقت الحوائج وتنبهت في وقت رجوع الناس، وقد جاء: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل.»

وقال إبراهيم بن السندي: أيقظتْ أعرابيةٌ أولادًا لها صغارًا قبل الفجر في غدوات الربيع وقالت: تنسموا هذه الأرواح، واستنشقوا هذا النسيم، وتفهموا هذا النعيم؛ فإنه يشدُّ من مُنَّتكم.

ويقال في الوصف: كأنه مِحراك نار، وكأنه الجأْم[١٤] صدًى.

وإذا وصفوه بالقِصر قالوا: كأنه عقدة رِشا وأُبنةُ عصا. وإذا كان ضعيفًا قالوا: كأنه قطعة زبد. والمولَّدون يقولون: كأنه أُسكرُّجة.[١٥]

قال بعض السلف في دعائه: اللهم لا أحيط بنعمك عليَّ فأعدَّها، ولا أبلغ كنه واحدةٍ منها فأحدَّها.

دعا عطاءٌ السندي فقال: أعوذ بك من عذابك الواقع الذي ليس له دافع، وأسألك من خيرك الواسع الذي ليس له مانع.

ودعا بعض السلف: اللهم إن قلبي وناصيتي بيدك لم تملِّكني منهما شيئًا، وإذ فعلتَ ذلك فكن أنت وليهما، فاهدنا سواء السبيل.

ودعا بعض الصالحين: اللهم ما كان لي من خيرٍ فإنك قضيته ويسرته وهديته، فلا حمد لي عليه، وما كان مني من سوءٍ فإنك وعظت وزجرت ونهيت فلا عذر لي فيه ولا حجة.

ودعا آخر: اللهم إني أعوذ بك من سلطان جائر، ونديمٍ فاجر، وصديق غادر، وغريم ماكر، وقريب مناكر،(١٦) وشريكٍ خائن، وحليفٍ مائن، وولدٍ جافٍ، وخادم هافٍ، وحاسد ملافظ، وجارٍ ملاحظ، ورفيقٍ كسلان، وخليلٍ وسنان، (١٧) وضعيف، ومركوبٍ قطوف،(١٨) وزوجةٍ مبذرة، ودارٍ ضيقة.

قال المدائني: قال بعض السلف لابنه: اشحذ طبعك بالعيون والفِقَر(١٩) وإن قلَّت، فإن الشجرة لا يشينها قلة الحمل إذا كان ثمرها نافعًا وأُكْلُها ناجعًا.

وقيل للأوزاعي: ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه.

قال مجاهد في قول الله تعالى: ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. قال: قِيامه عليهم بنفسه.

وقال عمر بن عبد العزيز: ليس من المروءة أن تَستخدم الضيف.

وقال إبراهيم بن الجنيد: كان يقال: أربعٌ للشريف لا ينبغي أن يأنف منهن وإن كان أميرًا: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وخدمته للعالم يتعلم منه، وإن سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم.

حاتم كان يقول: العجلة من الشيطان إلا في خمسة أشياء فإنها من السنة: إطعام الضيف إذا حلَّ، وتجهيز الميت، وتزويج البكر،[٢٠] وقضاء الدين، والتوبة من الذنب.

وقال: من أطعم الضيف لحمًا وخبز حنطة وماءً باردًا فقد تمم الضيافة. وقال حاتم: المزوِّر المرائي إذا ضاف إنسانًا حدَّثه بسخاوة إبراهيم الخليل، وإذا ضافه إنسانٌ حدثه بزهد عيسى ابن مريم.

وقال ميمون بن ميمون: من ضاف البخيل صامت دابَّته، واستغنى عن الكنيف، وأمن التخَمة.

وقال بعض السلف الصالح: لأن أجمع إخواني على صاعٍ من طعامٍ أحبُّ إليَّ من عتق رقبة.

قال الأعمش: كان الربيع بن خيثم يصنع لنا الخبيص[٢١] ويقدمه ويقول: اللهم اغفر لأطيبهم نفسًا، وأحسنهم خلقًا، وارحمهم جميعًا.

وقال أنس بن مالك: كل بيت لا يدخله الضيف لا تدخله الملائكة.

ولما قرأته على الوزير – بلَّغه الله آماله، وزكى أعماله، وخفف عن قلبه أثقاله – قال: ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والمُلَح، وهذه الكلمات الغُرَر ما فيها ما لا يجب أن يحفظ، والله لكأنها بستان في زمان الخريف، لكل عينٍ فيه منظر، ولكل يدٍ منه مقطف،

ولكل فمٍ منه مذاق. إذا فرغتَ فأضف لي جزءًا أو جزأين أو ما ساعدك عليه النشاط، فإن موقعها يحسُن، وذكرها يجمُل، وأثرها يبقى، وفائدتها تُروَى، وعاقبتها تُحمد.

فقلت: السمعَ والطاعةَ.

هوامش

(٦٤) في الأصل: «ماء»، والنون ساقطة من الناسخ.

(٦٥) الكرب: أصول السعف الغلاظ العراض.

(٦٦) يريد أن نار السعف يعلو لهيبها ويسطع، فهي صالحة للاستضاءة دون الاصطلاء.

(٦٧) الكسَّاح: الكناس، ومن ينظف البئر والنهر ونحوهما.

(٦٨) المكوك: مكيال يسع صاعًا ونصفًا أو نصف رطل إلى ثماني أواقيٍّ.

(٦٩) القسب: التمر اليابس.

(٧٠) عبارة الأصل: «نصيب المرق على المتاخر فكان نفعك.» وفيها تحريف ظاهر. والصواب ما أثبتنا.

(٧١) في الأصل: «سلمة بن المحبى»، وهو تحريف، والتصويب عن الإصابة والقاموس، وضبط في القاموس بكسر الباء المشددة، وفي الإصابة بفتحها.

(٧٢) موضع هذه النقط عبارة لابن السماك مهملة أكثر حروفها من النقط، فلم نستطع تحقيق ألفاظها، ونحن نثبتها هنا كما وردت في النسخة المأخوذة

بالتصوير الشمسي المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ١١٢١٥ز) في ص٣٨٧، ونصها: «وقال ابن السماك: لو خرج رجل في طلب السمان إلى الكوفة للدنه والدار في لعدوسه بقاياه كان خفيفًا على إخوانه لعرسه.»

(٧٣) يلاحظ أن هذه الطرفة والست التي بعدها كان أليق بها جميعًا باب المجون السابق.

(٧٤) مبرسم: أي به برسام، وهو علة يُهذى فيها.

(٧٥) السكباجة: مرق يعمل من اللحم والخل.

١) يلاحظ أن قوله: «بنت النبي صلي الله عليه وسلم » هو موضع التفكهة بجهل هذا القائل وغفلته.

(٧٦) الجأم: إناء من فضة.

(٧٧) أسكرجة: صحفة صغيرة يوضع فيها الكامخ، وهي فارسية.

(٧٨) مناكر: أي محارب.

(٧٩) هنا بياض بالأصل.

(٨٠) المركوب القطوف: الضيق الخطو.

(٨١) أي بعيون الكلام البليغ وفِقره.

(٨٢) في رواية: «الكفء».

(٨٣) الخبيص: طعام كان يصنع من التمر والسمن.

الليلة العشرون[1]

وقال لي مرة [أخرى]: اكتب لي جزءًا من الأحاديث الفصيحة المفيدة. فكتبت: قال مالك بن عمارة اللخمي: كنت أجالس في ظل الكعبة أيام الموسم عبد الملك بن مروان وقبيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرةً وفي الذكر مرةً وفي أشعار العرب وآثار الناس مرةً، فكنت لا أجد عند أحدٍ منهم ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة والتصرف في فنون العلم والفصاحة والبلاغة، وحسن استماعه إذا حُدِّث وحلاوة لفظه إذا حدَّث، فخلوت معه ذات ليلة فقلت: والله إني لمسرورٌ بك لما أشاهده من كثرة تصرفك وحسن حديثك وإقبالك على جليسك. فقال: إنك إن تعش قليلًا فسترى العيون طامحة إليَّ والأعناق قاصدةً نحوي، فلا عليك أن تُعمل إليَّ ركابك. فلما أفضت إليه الخلافة شخصت أريده، فوافيته يوم جمعة وهو يخطب الناس فتصديت له، فلما وقعت عينه عليَّ بَسَر[2] في وجهي وأعرض عني، فقلت: لم يُثبتني معرفةً ولو[3] عرفني ما أظهر نُكرة. لكنني لم أبرح مكاني حتى قُضيت الصلاة ودخل، فلم ألبث أن خرج الحاجب إليَّ فقال: مالك بن عمارة. فقمت فأخذ بيدي وأدخلني عليه، فلما رآني مد يده إليَّ وقال: إنك تراءيت لي في موضع لم يجُز فيه إلا ما رأيت من الإعراض والانقباض، فمرحبًا وأهلًا [وسهلًا] كيف كنت بعدنا؟ وكيف كان مسيرك؟ قلت: بخير، وعلى ما يحبه أمير المؤمنين. قال: أتذكر ما

كنتُ قلتُ لك؟ قلت: نعم، وهو الذي أعملني إليك. فقال: والله ما هو بميراثٍ ادَّعيناه [ولا أثرٍ وعيناه]، ولكني أخبرك عن نفسي خصالًا سَمَتْ بها نفسي إلى الموضع الذي ترى: ما لاحيت ذا ودٍّ ولا ذا قرابة قط، ولا شمتُّ بمصيبة عدوٍ قط، ولا أعرضت عن محدثٍ حتى ينتهي، ولا قصدت كبيرةً من محارم الله متلذذًا بها وواثبًا عليها، وكنت من قريش في بيتها ومن بيتها في وسطه، فكنت آمل أن يرفع الله مني وقد فعل، يا غلام بوئه منزلًا في الدار. فأخذ الغلام بيدي وقال: انطلق إلى رحلك. فكنت في أخفض حال وأنعم بال، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه، فإذا حضر عَشاؤه أو غداؤه أتاني الغلام وقال: إن شئتَ صرتَ إلى أمير المؤمنين فإنه جالس. فأمشي بلا حذاء ولا رداء فيرفع مجلسي، ويقبل على محادثتي، ويسألني عن العراق مرة وعن الحجاز مرة، حتى مضت لي عشرون ليلة، فتغديت عنده يومًا فلما تفرق الناس نهضت للقيام فقال: على رسلك أيها الرجل، أيُّ الأمرين أحب إليك: المُقام عندنا ولك النَّصَفة في المعاشرة والمجالسة مع المواساة، أم الشخوص ولك الحباء والكرامة؟ فقلت: فارقت أهلي وولدي على أن أزور أمير المؤمنين، فإن أمرني اخترت فِناءه على الأهل والولد. قال: بل أرى لك الرجوع إليهم، فإنهم متطلعون إلى رؤيتك، فتجدد بهم عهدًا ويجددون بك مثله، والخيار في زيارتنا والمقام فيهم إليك، وقد أمرنا [لك] بعشرين ألف دينار وكسوناك وحملناك، أتُراني ملأت يدك أبا نصر؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أراك ذاكرًا لما رويت(٤) عن نفسك. قال: أجل، ولا خير فيمن ينسى إذا وعد. ودِّع إذا شئت صحبتك السلامة.

قال الوزير: ما أحلى هذا الحديث! هات ما بعده. قلت: قال يحيى بن أبي يعلى: لما قدم المال من ناحية عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أبي بكر بن حزم قسمه بين الناس في المدينة، فأصاب كل إنسان خمسين دينارًا، فدعتني فاطمة بنت الحسين عليه السلام فقالت: اكتب. فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت الحسين، سلام [الله] عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد؛ فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما تولاه وعصم به دِينه، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبي بكر بن حزم أن يقسم فينا مالًا من الكتيبة، ويتحرى بذلك ما كان يصنع مَن قبله من الأئمة الراشدين المهديين، وقد بلَّغَنا ذلك وقسَم فينا، فوصل الله أمير المؤمنين، وجزاه من والٍ خير ما جزى أحدًا من الولاة، فقد كانت أصابتنا جفوةٌ، واحتجنا إلى أن يُعمل فينا بالحق. فأقسم بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول اللهﷺ من لا خادم له، واكتسى من كان عاريًا، واستقر من كان لا يجد ما يستقرُّ [به]. وبعثَتْ [إليه] رسولًا.

قال يحيى: فحدثني الرسول قال: قدمت الشام(٥) عليه، فقرأ كتابها وإنه ليحمد الله ويشكره، فأمر لي بعشرة دنانير، وبعث إلى فاطمة خمسمائة دينارٍ، وقال: استعيني بها على ما يُعْوزكِ. وكتب إليها كتابًا يذكر فيه فضلها وفضل أهل بيتها ويذكر ما فرض الله لهم من الحق.

فرقَّ الوزير عند هذا الحديث وقال: أذكرتني أمر العَلَوِيَّة. وأخذ القلم واستمد من الدواة وكتب في التذكرة شيئًا، ثم أرسل إلى نقيب

العلوية العمري في اليوم الثاني بألف دينار حتى تفرق في آل أبي طالب، وقال لي: هذا من بركة الحديث.

ثم قال: كيف تطاول هؤلاء القوم إلى هذا الأمر مع بُعدهم من رحم رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم وقُرْب بني هاشم منه؟ وكيف حدثتهم أنفسهم بذلك؟ إن عجبي من هذا لا ينقضي، أين بنو أمية وبنو مروان من هذا الحديث مع أحوالهم المشهورة في الدين والدنيا؟

فقلت: أيها الوزير، إذا حُقِّق النظر واستُشفَّ الأصل(٦) لم يكن هذا(٧) عجيبًا، فإن أعجاز الأمور تاليةٌ لصدورها والأسافل تاليةٌ لأعاليها، ولا يزال الأمر خافيًا حتى ينكشف سببه(٨) فيزول التعجب [منه]، وإنما بَعُد هذا على كثير من الناس، لأنهم لم يُعنَوا به وبتعرف أوائله والبحث عن غوامضه ووضعه في مواضعه، وذهبوا مذهب التعصب.

قال: فما الذي خفي حتى إذا عُرف سقط التعجب ولزم التسليم؟ فكان من الجواب: لا خلاف بين الرواة وأصحاب التاريخ أن النبيﷺ تُوُفِّي وعَتَّاب بن أَسيدٍ على مكة، وخالد بن سعيد على صنعاء، وأبو سفيان بن حرب على نجران، وأبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وسعيد بن القِشْب الأزدي حليف بني أمية على جُرَش ونحوها، والمهاجر بن أبي أمية المخزومي على كندة والصَّدِف، وعمرو بن العاص على عمان، وعثمان بن أبي العاص على الطائف. فإذا كان النبيﷺ أسس هذا الأساس وأظهر أمرهم لجميع الناس كيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط

رجاؤهم، ولا يمتد[٩] في الولاية أملهم؟ وفي مقابلة هذا، كيف لا يضعف طمع[١٠] بني هاشم ولا ينقبض رجاؤهم ولا يقصر أملهم؟ وهي الدنيا والدين عارض فيها والعاجلة محبوبة. وهذا وما أشبهه حدد أنيابهم، وفتح أبوابهم، وأترع كأسهم، وفتَل أمراسهم، ودلائل الأمور تسبق، وتباشير الخبر تُعرَف.

قال ابن الكلبي: حدثني الحكم بن هشام الثقفي قال: مات عبيد الله بن جحشٍ عن أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت معه بأرض الحبشة، فخطبها النبيﷺ إلى النجاشي، فدعا بالقرشيين فقال: من أولاكم بأمر هذه المرأة؟ فقال خالد بن سعيد بن العاص: أنا أولاهم بها. قال: فزوِّج نبيَّكم. قال: فزوجه ومهر عنه أربعمائة دينار، فكانت أول امرأة مُهِرت أربعمائة دينار. ثم حُملت إلى النبيﷺ ومعها الحكم بن أبي العاص، فجعل النبيﷺ يكثر النظر إليه، فقيل له: يا رسول الله، إنك لتكثر النظر إلى هذا الشاب. قال: أليس ابن المخزومية؟ قالوا: بلى. قال: إذا بلغ بنو هذا أربعين رجلًا كان الأمر فيهم. وكان مروان إذا جرى بينه وبين معاوية كلامٌ قال لمعاوية: والله إني لأبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة، وما بقي إلا عشرة حتى يكون الأمر فيَّ. فيقول معاوية بن أبي سفيان: أخذها والله من عينٍ صافيةٍ.

فهذا – كما تسمع – إن كان حقًّا فلا سبيل إلى رده، وإن كان مفتعلًا فقد صار داعيةً إلى الأمر الذي وقع النزاع فيه، وجال الخصام عليه.

وها هنا شيء آخر:

قال القعقاع بن عمرو: قلت لعلي بن أبي طالب عليه السلام: ما حملكم على خلاف العباس بن عبد المطلب وترْك رأيه؟ وهذا يعني به أن العباس كان قال لعلي عليه السلام في مرض النبيﷺ: قم بنا إليه لنسأله عن هذا الأمر، فإن كان لنا أشاعه في الناس وإن كان في غيرنا وصَّى فينا، وكان عليٌّ عليه السلام أبى على عمه العباس ولم يطاوعه. قال القعقاع: قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في جوابه لي: لو فعلنا ذلك فجعلها في غيرنا بعد كلامنا لم ندخل فيها أبدًا فأحببت أن أكف، فإن جعلها فينا فهو الذي نريد، وإن جعلها في غيرنا كان رجاء من طلب ذلك منا ممدودًا ولم ينقطع منا ولا من الناس. قال القعقاع: فكان الناس في ذلك فرقتين: فرقةٌ تحزَّب للعباس وتدين له، وفرقةٌ تحزَّب لعليٍ وتدين له. فهذا وما أشبهه يضعف نفوسًا ويرفع رءوسًا، وبعد فهذا البيت خُصَّ بالأمر الأول، أعني الدعوة والنبوة والكتاب العزيز، فأما الدنيا فإنها تزول من قوم إلى قوم، وقد رُئِي(١١) أبو سفيان صخر بن حرب وقد وقف على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول: رحمك الله يا أبا عُمارة! لقد قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا.

فإن قال قائل: فقد وصل(١٢) هذا الأمر بعد مدةٍ إلى [آل] النبيﷺ. فالجواب: [صدقت]، ولكن لمَّا ضعُف الدين وتحلحل(١٣) ركنه وتداوله الناس بالغلبة والقهر، فتطاول له ناسٌ من آل رسول اللهﷺبالعجم وبقوَّتهم ونهضتهم وعادتهم في مساورة الملوك وإزالة الدول وتناول العز كيف

كان، وما وصل إلى أهل العدالة والطهارة والزهد والعبادة والورع والأمانة، ألا ترى أن الحال استحالت عجمًا: كِسرويةً وقيصريةً، فأين هذا من حديث النبوة الناطقة والإمامة الصادقة؟ هذا الربيع – وهو حاجب المنصور – يضرب من شمَّت الخليفة عند العطسة، فيُشكَى ذلك إلى أبي جعفر المنصور، فيقول: أصاب الرجل السُّنة وأخطأ الأدب. وهذا هو الجهل، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب، بل الأدب كله في السنة، وهي الجامعة للأدب النبوي والأمر الإلهي، ولكن لما غلبت عليهم العزة[١٤] ودخلت النعرة في آنافهم وظهرت الخُنْزُوانة[١٥] بينهم، سمَّوا آيين[١٦] العجم أدبًا وقدموه على السنة التي هي ثمرة النبوة. هذا إلى غير ذلك من الأمور المعروفة والأحوال المتعالَمة المتداولة التي لا وجه لذكرها ولا فائدة لنشرها، لأنها مقررةٌ في التاريخ ودائرةٌ في عرض الحديث.

ولما كانت أوائل الأمور على ما شرحتُ وأواسطها على ما وصفت، كان من نتائجها هذه الفتن والمذاهب والتعصب والإفراط، وما تفاقم منها وزاد ونما وعلا وتَراقَى، وضاقت الحيل عن تداركه وإصلاحه، وصارت العامة مع جهلها تجد قوةً من خاصتها مع علمها، فسُفكت الدماء واستُبيح الحريم وشُنَّت الغارات وخُرِّبت الديارات، وكثر الجدال وطال القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيران ومحب السلامة مقصودًا بكل لسانٍ وسنان، وصار الناس أحزابًا في النحل والأديان، فهذا نُصَيْرِي،[١٧] وهذا أشجعي،[١٨] وهذا جارودي،[١٩] وهذا قَطْعي،[٢٠] وهذا جُبَّائي، وهذا أشعري،[٢١] وهذا خارجيٌّ، وهذا شُعيبي،[٢٢] وهذا قَرْمَطي،[٢٣] وهذا راوَنْدي،[٢٤] وهذا نجاري،[٢٥] وهذا

زعفراني،[٢٦] وهذا قدري،[٢٧] وهذا جبري،[٢٨] وهذا لفظي،[٢٩] وهذا مستدركي،[٣٠] وهذا حارثي،[٣١] وهذا رافضي، ومن لا يحصي عددها إلا الله الذي لا يُعجزه شيء. لا جرم شَمت اليهود والنصارى والمجوس بالمسلمين وعابوا وتكلموا ووجدوا آجُرًّا وجِصًّا فبنوا وسمعوا فوق ما تمنوا [فروَوا].

وقال النبيﷺ: «لا يزداد الأمر إلا صعوبة ولا الناس إلا اتباع هوى حتى تقوم الساعة على شرار الناس.» وقال أيضًا: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء من أمتي.»

وقلتُ لابن الجلَّاء الزاهد بمكة سنة ثلاثٍ وخمسين وثلاثمائة: ما صفة هذا الغريب؟ فقال لي: يا بني هو الذي يفر من مدينةٍ إلى مدينة ومن قُلةٍ إلى قلة [ومن بلدٍ إلى بلد] ومن برٍ إلى بحر ومن بحر إلى بر حتى يسلم، وأنَّى له بالسلامة مع هذه النيران التي قد طافت بالشرق والغرب وأتت على الحرث والنسل، ففدَّمت[٣٢]كل أفوه وأسكتت كل ناطق وحيرت كل لبيب وأشرقت كل شارب وأمرَّت على كل طاعم؟ وإن الفكر في هذا الأمر لمختلسٌ للعقل[٣٣] وكارثٌ[٣٤] للنفس ومحرقٌ للكبد.

فقال الوزير: والله إنه لكذلك، وقد نال مني هذا الكلام وكبر عليَّ هذا الخطب، والله المستعان.

ونظرتُ إليه وقد دمعت عينه ورق فؤاده وهو -كما تعلم - كثير التأله شديد التوقي يصوم الاثنين والخميس، فإذا كان أول رجب أصبح صائمًا إلى أول يومٍ من شوال، وما رأينا وزيرًا على هذا الدأب وبهذه العادة لا منافقًا ولا مخلصًا،[٣٥] وقد قال الله تعالى: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. تولاه الله أحسن الولاية وكفاه أكمل الكفاية إنه قريب مجيب!

فلما رأيت دمعته قلت: أيها الوزير، روي عن النبيﷺ أنه قال: «حرمت النار على عينٍ بكت من خشية الله، [وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله]، وحرمت النار على عينٍ غضَّت عن محارم الله.» فقال أحسن الله توفيقه: هو الهلاك إن لم يُنقذ الله بفضله ولم يتغمد بعفوه. لو غرقْت في البحر كان[٣٦] رجائي في الخلاص منه أقوى من رجائي في السلامة مما أنا فيه. قلت: إذا علم الله من ضميرك هذه العقيدة ألبسك ثوب عفوه وحلاك بشعار عافيته وولايته، وكفاك كيد أعدائك وعصب برءوسهم ما يريدونه بك، إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

فقال: اجمع لي جزءًا من رقائق العبَّاد وكلامهم اللطيف الحلو، فإن مراميهم شريفة وسرائرهم خالصة ومواعظهم رادعة، وذاك - أظن - للدين الغالب عليهم والتأله المؤثر فيهم، فالصدق مقرونٌ بمنطقهم والحق موصولٌ بقصدهم، ولست أجد هذا المعنى في كلام الفلاسفة، وذاك - أظن أيضًا - لخوضهم في حديث الطبائع والأفلاك والآثار

وأحداث الزمان. قلت: أفعل. فكتبت تمام ما تقدم به، ثم كتبت بعد ورقاتٍ في حديث النساك.

قال عتبة بن المنذر السلمي: سئل رسول اللهﷺ أي الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ فقال: أكثرهما وأوفاهما. ثم قال رسول اللهﷺ: «إن موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من نتاج غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما وضعت غنمه من قالب[٣٧] لون ذلك العام، فلما وردت الحوض وقف موسى بإزاء الحوض فلم تصدر منها شاةٌ إلا ضرب جنبها بعصاه، فوضعت قوالب ألوان كلها ووضعت اثنتين أو ثلاثةً كلُّ شاة، ليس فيهن فشوشٌ[٣٨] ولا ضبوبٌ[٣٩] ولا ثعولٌ[٤٠] ولا كميشةٌ[٤١] تفوت الكف[٤٢] فإن افتتحتم الشام وجدتم بها بقايا منها فاتخذوها وهي السامرية.»

قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي في حديثٍ: بعث الله [تعالى] رسولًا فينا نعرف صدقه وأمانته، فدعانا إلى الله [لنوحده] ونعبده ونخلع ما كنا نعبده، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات.

وقال صاحب التاريخ: ولدتْ لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام زيدًا ورقية، وأمُّ أمِّ كلثوم فاطمة بنت النبيﷺ.

قال أنس بن مالك: صلى الناس على رسول اللهﷺ لمَّا تُوفِّي أفرادًا لم يؤمهم عليه أحد.

ولما بلغ رسول اللهﷺ ثمان سنين هلك عبد المطلب وهو شيبة أبو الحارث، وذلك بعد الفيل بثمان سنين، وتُوفيت آمنة أمه وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة.

هوامش

(١) انظر [الجزء الثاني – الليلة السابعة عشر – حاشية رقم ٥٨].

(٢) في «أ»: «كشر».

(٣) عبارة «ب»: «أو عرفني وأظهر ... إلخ».

(٤) في الأصل: «ورثت».

(٥) في «أ»: «العراق»، وهو تبديل من الناسخ.

(٦) في «أ»: «الأمر».

(٧) في «أ»: «لم يكن بعيدًا عجيبًا».

(٨) في «أ»: «حتى تنكشف نفسه»، وهو تحريف.

(٩) في «أ»: «يحيذوا»، وفي «ب»: «يحيد»، وهو تصحيف في كلتيهما.

(١٠) في «ب»: «أمل».

(١١) كذا في «ب». وعبارة «أ»: وقد روي أنه وقف أبو سفيان صخر بن حرب على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول.

(١٢) في «ب»: «صار».

(١٣) تحلحل ركنه: أي تزعزع وزال عن موضعه.

(١٤) في كلتا النسختين: «الحرية»، وهو تحريف.

(١٥) الخنزوانة: الكبر.

(١٦) آيين العجم: عرفهم وعاداتهم، وهي كلمة فارسية.

(١٧) النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة كانوا يؤلهون عليًّا، وكان منهم ناس في زمن علي بن أبي طالب فحذَّرهم، ويُنسبون إلى رجل اسمه نُصير.

(١٨) كذا ورد هذا اللفظ في «أ» وحدها، ولم نجد الأشجعية فيما راجعناه من الكتب المؤلفة في الفِرق.

(١٩) الجارودية: فرقة من الزيدية نُسبت إلى أبي الجارود زياد بن أبي زياد، ويزعمون أن رسول الله ﷺ نص على إمامة علي بالوصف دون الاسم، وكفروا الصحابة لتركهم بيعة علي.

(٢٠) القطعية، ويقال لهم الاثنا عشرية أيضًا، وذلك لدعواهم أن الإمام المنتظر هو الثاني عشر، وهؤلاء يسوقون الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى، ويقطعون بموت موسى، ويزعمون أن الإمام بعده سبط محمد بن الحسن الذي هو سبط علي بن موسى الرضا.

(٢١) الجُبَّائية والأشعرية: فرقتان من المتكلمين، أولاهما تنسب إلى أبي علي الجبائي وكانت المعتزلة البصرية على مذهبه، ثم انتقلوا بعده إلى مذهب أبي

هاشم ابنه، وسموا بعد اليهشمية، وثانيتهما تنسب إلى أبي الحسن الأشعري من أهل السنة.

(٢٢) الشعيبية: فرقة من الخوارج ينسبون إلى رجل منهم اسمه شعيب، ويقولون في القدر والاستطاعة والمشيئة قول الخازمية، وهو موافق لقول أهل السنة في ذلك.

(٢٣) القرامط والقرامطة: طائفة مشهورة من الزنادقة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وماني، وكانوا يبيحون المحرمات، وكان ابتداء أمرهم في سنة مائتين وثمان وسبعين. راجع عقد الجمان للعيني في حوادث هذه السنة. ومن هذه الطائفة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي، وهو الذي أظهر مذهبهم، وكان دقاقًا، فنُفِي عن بلده جنابة فخرج إلى البحرين وأقام بها تاجرًا، وجعل يستميل العرب بها ويدعوهم إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها، وقُتل سنة إحدى وثلاثمائة، ثم ولي الأمر بعده ابنه أبو طاهر سليمان، فكان من قتله حجاج بيت الله الحرام وانقطاع طريق مكة في أيامه بسببه، والتعدي في الحرم وانتهاب الكعبة ونقله الحجر الأسود إلى القطيف والأحساء من أرض البحرين، ما قد اشتهر ذكره، وقد بقي الحجر الأسود عندهم إحدى وعشرين سنة ثم رُد ببُذول بُذلت لهم. وقد استوفى الطبري وابن الأثير وغيرهما أخبار هذه الطائفة في كتبهم فارجع إليها، وانظر معجم البلدان في الكلام على «جنابة» بتشديد النون وتاج العروس «مادة جنب».

(٢٤) الراوندية هم أتباع الراوندي أبي الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق، من أهل مرو، سكن بغداد وكان من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم وتزندق وألف في الرد عليهم. ومات سنة ٢٩٨.

(٢٥) النجارية: أتباع الحسين بن محمد النجار، وقد وافقوا أهل السنة في أصول والقدريةَ في أصول وانفردوا بأصول.

(٢٦) الزعفرانية: أتباع الزعفراني الذي كان بالري، وهم فرقة من النجارية.

(٢٧) القدرية: فرقة تنفي القدر عن الله عز وجل وتقول إن العبد مخير في أفعاله وليس للقدر دخل فيها.

(٢٨) الجبرية: فرقة تثبت القدر لله عز وجل وتقول: إن العبد مجبر على أفعاله، وليس له اختيار فيها، وإن أفعاله بمثابة الرعدة والرعشة.

(٢٩) كذا ورد هذا اللفظ في كلتا النسختين، ولم نجد فرقة بهذا الاسم، فلعله يريد بها الظاهرية الذين يأخذون بظاهر اللفظ.

(٣٠) المستدركة: فرقة من النجارية يزعمون أنهم استدركوا ما خفي على أسلافهم.

(٣١) الحارثية: فرقة من الإباضية، ينسبون إلى حارث بن مزيد الإباضي، وهم الذين قالوا في باب القدر بمثل قول المعتزلة، وزعموا أيضًا أن الاستطاعة قبل الفعل، وكفرهم سائر الإباضية في ذلك.

(٣٢) فدمت: من الفدامة، وهي العي.

(٣٣) في «أ»: «الأمر».

(٣٤) كارث للنفس: من كرثه الغم إذا اشتد عليه.

(٣٥) في «أ»: «ولا فحاصًا»، وهو تحريف.

(٣٦) في «أ»: «كاف»، وهو تحريف.

(٣٧) شاة قالب لون: إذا كانت على غير لون أمها.

(٣٨) الفشوش: الشاة التي ينفشُّ لبنها من غير حلب.

(٣٩) في القاموس: الضبوب: الدابة تبول وتعدو، والشاة الضيقة الإحليل.

(٤٠) الثعول: الزائدة الأطباء، وهي حلمات الضرع.

(٤١) الكميشة من الشياه: الصغيرة الضرع التي انكمش ضرعها وتقلص.

(٤٢) في «أ»: «بلون الكف»، وهو تحريف. ووردت هذه الكلمة في «ب» مطموسة الحروف تتعذر قراءتها، وتفوت الكف، أي لا يمكن القبضُ على ضرعها بالكف لصغره

الليلة الحادية والعشرون

وسأل مرة عن المغنِّي إذا راسله[1] آخر لِمَ يجب أن يكون ألذ وأطيب وأحلى وأعذب؟

فكان من الجواب: إن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب ما يمنع من اقتضاب قولٍ وتكلف جواب، ذكر أن المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد، وربما كان الحس الواحد أيضًا غليظًا أو كدرًا فلا يكون لنيله[2] اللذة به[3] بسطٌ ونشوٌ ولذاذة،[4] وكذلك [المسموع ربما لم يكن في غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع] الذي هو نفس في الهواء، فلا تكون أيضًا إنالته للذة على التمام والوفاء، فإذا ثنِّي[5] المسموع – أعني توحَّد[6] النغم بالنغم – قوي الحس المدرك، فنال مسموعين بالصناعة ومسموعًا واحدًا بالطبيعة. والحس لا يعشق المواحدة[7] والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها في المركَّب، كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط،[8] فكلما قوي الحس باستعماله التذَّ صاحبه بقوته حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحسٍّ أو أكثر، وكما أن الحس إذا كان كليلًا [كان الذي يناله كليلًا]، كذلك الحس إذا كان قويًّا كان ما يناله قويًّا.

قال: هذا كله موهوبٌ للحس فما للعقل في ذلك؟ فإنا نرى العاقل تعتريه دهشةٌ وأريحية واهتزاز.

قلت: قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في مذاكرته لابن خمار، وذكر أن من شأن العقل السكون ومن شأن الحس التهيج، ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة، والإنسان ليس يجد العقل وجدانًا فيلتذ به وإنما يعرفه إما جملةً وإما تفصيلًا، أعني جملةً بالرسم وتفصيلًا بالحد، ومع ذلك يشتاق إلى العقل ويتمنى أن يناله ضربًا من النيل ويجده نوعًا من الوجدان، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعة بالآلات المهيأة، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتفقة أيضًا، حدث الاعتدال الذي يشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه، فبهر[٩] الإحساس وبث الإيناس وشوَّق إلى عالم الروح والنعيم وإلى محل الشرف العميم، وبعث على كسب الفضائل الحسية والعقلية، أعني الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر، وهذه كلها جماع الأسباب المكملة للإنسان في عاجلته وآجلته، وبالواجب ما كان ذلك كذلك، لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق إليها والحرص عليها والطلب لها، والشوق والطلب والحرص لا تكون إلا بمشوقٍ وباعثٍ وداعٍ، فلهذا برزت الأريحية والهزة والشوق والعزة، فالأريحية للروح والهزة للنفس والشوق للعقل والعزة للإنسان. ومما يجب أن يُعلم أن السمع والبصر أخص بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس في السر والعلانية ومؤنساها في الخلوة وممداها في النوم واليقظة، وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد[١٠] الذي هو مطية الإنسان. لكن الفرق بين

السمع والبصر في أبواب كثيرة: ألطفها أن أشكال المسموع مركبةٌ في بسيط وأشكال المبصر مبسوطة في مركب.

قلت: وقد حكيت هذا لأبي زكرياء الصيمري فطرب وارتاح وقال: ما أبعد نظر هذا الرجل! وما أرقى لحظه! وما أعز جانبه!

هوامش

(١) راسله آخر: أي تابعه في غنائه مساندة له.

(٢) في كلتا النسختين: «فلا يكون نيله للذة»، وهو تحريف.

(٣) به: أي بالمسموع.

(٤) في كلتا النسختين: «وقسر وولاية»، ولا معنى لهاتين اللفظتين هنا، فلعل صوابهما ما أثبتناه أو ما يفيد معنييهما.

(٥) في كلتا النسختين: «فأذن الأنس المسموع»، وهو تحريف لا معنى له، ولعل صوابه ما أثبتنا أو ما يفيد معناه.

(٦) في كلتا النسختين: «توجد»، وهو تصحيف.

(٧) في «ب»: «المؤاخذة»، وفي «أ»: «الواحدة»، وهو خطأ في كلتيهما.

(٨) في «أ»: «بقاء النشيط»، وهو تحريف.

(٩) في كلتا النسختين: «فقهر»، وهو تحريف.

(١٠) في «أ»: «في الحد»، وهو تحريف.

الليلة الثانية والعشرون

وقال لي مرة أخرى: ارْوِ لي شيئًا من كلام أبي الحسن العامري، فإني أرى أصحابنا يرذلونه ويذِيلونه، فلا يرون له في هذه العصبة قدمًا ولا يرفعون له في هذه الطائفة علَمًا.

فقلت: كان الرجل لكزازته وغلظ طباعه وجفاء خلقه ينفر من نفسه ويغري الناس بعرضه، فإذا طلب منه الفن الذي قد خُص به وطولب بتحقيقه وُجد على غاية الفضل.

فمن كلامه قوله: الطبيعة تتدرج في فعلها من الكليات البسيطة إلى الجزئيات المركبة، والعقل يتدرج من الجزئيات المركبة إلى البسائط الكلية، والإحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني المركبة ليُتوصل بتوسطها إلى استثباتها،[1] والإحاطة بالمعاني المركبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني البسيطة ليُتوصل بتوسطها إلى تحقيق إثباتها.[2] وكما أن القوة الحسية عاجزةٌ بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل، بل تحتاج معها إلى القوة العاقلة، وإن قويت لصار العقل فضلًا، كذلك أيضًا القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على استثبات المركبات إلا من جهة القوة الحساسة، ولو قويت عليه لصار الحس فضلًا [للعاقلة].

قال: هذا كلامٌ بارعٌ من صدرٍ واسع وأحب أن تزيدني من نمطه. قلت: وقال أيضًا: الكلي مفتقرٌ إلى الجزئي لا لأن يصير بديمومته

محفوظًا [بل لأنْ يصير بتوسطه موجودًا، والجزئي مفتقر إلى الكلي لا لأن يصير بتوسطه موجودًا، بل لأن يصير بديمومته محفوظًا].

وقال: الحال في جميع السبل - أعني مسالك الأشياء في تكونها[3] صناعيةً كانت أو تدبيريةً أو طبيعيةً أو اتفاقيةً - واحدة، مثاله أن الإنسان وإن التذَّ بالدَّستنْبان[4] فلن يعد موسيقارًا إلا إذا تحقق بمبادئه الأُول التي هي الطَّنينات وأنصاف الطنينات، وكذلك الإنسان وإن استطاب الحلو فلن يُسمَّى حلوانيًّا إلا إذا عرف بسائطه وأُسطُقُسَّاته.

وقال: العلم لا يحيط بالشيء إلا إذا عرف مبادئه القريبة والبعيدة والمتوسطة.

وقال: نتوصل إلى كُرية القمر بما نراه من اختلاف أشكاله، أعني أنا نراه في الدورة الواحدة هلاليًّا مرتين ومنصَّفًا مرتين وبدرًا مرة واحدة، وهذه الأشكال وإن كانت متقدمةً عندنا فإن كونه كريًّا هو المتقدم بالذات.

وقال: ما هو أكثر تركيبًا فالحس أقوى على إثباته، وما هو أقل تركيبًا فالعقل أخلص إلى ذاته.

وقال: الأحداث - وهي الذوات الإبداعية - الوقوف على إثباتها يغني عن البحث عن ماهيَّاتها.

وقال: كل معنى يوجد بوجوده غيره لا يرتفع بارتفاع ذلك الذي هو غيره، بل يرتفع غيره بارتفاعه، فإنه أقدم ذاتًا من غيره، مثاله الجنس لا

يرتفع بارتفاع واحدٍ من أنواعه والأنواع ترتفع بارتفاع الجنس، وكذلك حال النوع مع الشخص، فالجنس أقدم من النوع والنوع أقدم من الشخص، وأعني بالجنس والنوع الطبيعيَّين لا المنطقيين.

وقال: معرفتنا أولًا تتعلق بالأشخاص الجزئية ثم بتوسطها ثبتت الأجناس فإذن المتقدم بالذات غير المتقدم إلينا.

وقال: مسلك العقل في تعرُّف المعاني الطبيعية مقابلٌ لمسلك الطبيعة في إيجادها، لأن الطبيعةه تتدرج من الكليات البسيطة إلى الجزئيات المركبة، والعقل يتدرج من الجزئيات المركبة إلى البسائط الكلية.

قال أبو النضر نفيس: إنما كان هذا هكذا، لأن الطبيعة متناولة من العقل والعقل مناولٌ للطبيعة فوجب أن يختلف الأمران، فإن قال قائل: فهلا تم الأمران معًا بواحدٍ منهما، أعني الطبيعة أو العقل؟ فالجواب أن أحدهما في العلو والآخر في السُّفْل، فليس للعالي أن يهبط ولا للسافل أن يعلو، فلما كان هذا محالًا توسط بينهما – أعني العالي والسافل – المناولة والتناول حتى اتصل الأول بالثاني، وغص الفضاء بينهما بضروب الأفراد والأزواج، وانتظم الكل فلم يكن فيه خلل ولا دونه مأتى ولا وراءه متوهَّم.

وقال: الإنسان مركب من الأعضاء الآلية بمنزلة[٦] الرأس واليدين والرجلين وغيرها، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة[٦] اللحم والعظم والعصب والشريان، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركب من الأخلاط الأربعة التي هي الدم والبلغم

والمُرِّيَّان، ثم كل واحد من هذه الأخلاط مركب من الأسطقسَّات الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، ثم كل واحدٍ من هذه الأسطقسات مركب من الهَيولى والصورة.

وقال: كما أن لكل عضو قوةً تخصه بتدبيرها كذلك لجميع البدن قوةٌ أخرى ضامنةٌ لتدبيره.

قال: وقال الحكيم في كتاب «السماء»:[٧] علة الأنواع والأجناس ودوامها هي الفلك المستقيم، وعلة كون الأشخاص وتجدد حدوثها هي الفلك المائل، فأما الكليات المنطقية فإن طبيعتها هي القوة [القياسية المستتبة لها] عند تكوُّن[٨] الحس على واحدٍ منها. قال أبو النضر نفيس: هذا حكمٌ بالوهم ورأيٌ خرج من الظن. الفلك المستقيم والفلك المائل هما بنوع الوحدة ونسبة الاتفاق،[٩] فليس لأحدهما اختصاص بالأنواع والأجناس ولا بتجدد الأشخاص، والدليل على هذا أن قالبًا[١٠] لو قُلب[١١] قالبه ذلك لم يكن له عنه انفصال. وللرأي زلات كما أن للسان فلتات، وللحكيم[١٢] هفوات كما أن للجواد عثرات، وما أكثر من يَسكر فيقول في سُكره ما لا يعرف! وما أكثر من يغرَق[١٣] في النوم فيَهذي بما لا يدري، ومن الذي حقق عنده أن الفلك المستقيم هذا نعته، والفلك المائل تلك صفته؟ هذا توهم وتلفيق لا يرجع مدعيه إلى تحقيق، وقول أبي الحسن هذا عن الحكيم تقليدٌ، كما أن دعوى ذاك الحكيم توهُّم، ومحبة الرجال للرجال فتنةٌ حاملةٌ على قبول الباطل،

وبغض الرجال للرجال فتنةٌ حاملةٌ على رد الحق، وهذا أمرٌ قد طال منه الضجيج وفُزِع إلى الله منه بالتضرع.

قال أبو الحسن: الموجود له حقيقةٌ واحدةٌ لا تُدرك إلا عقلًا وليس له مبدأ، ولو كان له مبدأٌ لشاركه المبدأ في طبيعة الوجود، وليس بمتحرك لأنه لا مقابل له فيتحرك إليه.

وقال أبو النضر نفيس: عَنَى بهذا الموجود الحقَّ الأول الذي هو علة العلل وهو البارئ الإله، وما أنصف، لأنه يجب أن يَقسم الموجود بأقسامه، ويصف مرتبة كل موجود على ما هي عليه وعلى ما هو به حتى ينتهي [مِن] هذا الموجود(١٤) الأعلى إلى آخر الموجود الأسفل، أو يصفَ الموجود الأسفل حتى يرتقي إلى هذا الموجود الأعلى، فإنه لا شيء مما يَعقل ويحس إلا وله من هذا الوجود نصيب به استحق أن يكون موجودًا، وإن كان ذلك النصيب قليلًا.

وقال: قد يوصف الشيء بأنه واحد بالمعنى وهو كثير بالأسماء، ويوصف بأنه واحد بالاسم وهو كثير بالمعنى، ويوصف بأنه واحد بالجنس وهو كثير بالأنواع، ويوصف بأنه واحد بالنوع وهو كثير بالشخوص، ويوصف بأنه واحد بالاتصال وهو كثير بالأجزاء، وقد نقول في شيء: إنه واحد بالموضوع وهو كثير بالحدود، كالتفاحة الواحدة التي يوجد فيها اللون والطعم والرائحة، وقد يكون واحدًا في الحد وكثيرًا في الموضوع، كالبياض الذي يوجد في الثلج والقطن والإسفيداج، وقد يكون كثيرًا

بالحد والموضوع كالعلم والحركة. فإن موضوع هذا الجسمُ وموضوع ذاك النفس، وحدُّ أحدهما غير حد الآخر، وقد يكون واحدًا بالموضوع والحد بمنزلة السيف والصِّمصام. وقد نقول أشياء تكون واحدةً بالفعل وهي بالقوة كثيرة كالسِّراج الواحد، فأما أن يكون واحدًا بالقوة وكثيرًا بالفعل من وجهٍ واحد فلا يكون، بل من جهات مختلفة.

قال أبو النضر نفيس: الواحد الذي ينقسم فتنشأ منه الكثرة غيرُ الواحد الذي لا ينقسم، والكثير الذي يتوحَّد حتى يكون واحدًا غيرُ الكثير الذي لا يتوحَّد، فالواحد الذي لا ينقسم علة الواحد المنقسم، والكثيرُ الذي يتوحد هو علة الكثير الذي [لا] يتوحد، وبالحكمة الإلهية ما كان هكذا حتى يكون الكثير الذي يتوحد في مقابلة الكثير الذي لا يتوحد، والواحد الذي ينقسم في مقابلة الواحد الذي لا ينقسم، وهذه المقابلة هي عبارة عن صورة التمام الحاصل للكل، وليست هي عبارة عن صورةٍ مزاحمةٍ لصورة أو كثيرةٍ غالبةٍ لكثرة. المستغاثُ بالله من قصور العبارة عن الغاية وتقاعس اللفظ عن المراد.

وقال: (١٥) يعجبني من جملة الحكم الأمثالُ التي يضربونها والعيون التي يستخرجونها والمعاني التي يقربونها. قلت: صدقتَ، مثل قول فيلسوف: البدن للنفس بمنزلة الدكان للصانع والأعضاء بمنزلة الآلات، فإذا انكسرت آلات الصانع وخرِّب الدكان وانهدم فإن الصانع لا يقدر على عمله الذي كان يعمله إلا أن يتخذ دكانًا آخر وآلاتٍ جددًا أُخر.

قال: أحب أن أسمع شيئًا من منثور كلامهم في فنون مختلفة.

قلت: قال فيلسوف: العاقل يضل عقله عند محاورة الأحمق. قال أبو سليمان: هذا صحيح، ومثاله[١٦] أن العاقل إذا خاطب العاقل فهم وإن اختلفت مرتبتاهما في العقل، فإنهما يرجعان إلى سنخ[١٧] العقل، وليس كذلك العاقل إذا خاطب الأحمق، فإنهما ضدان والضد يهرب من الضد. وقد قيل لأبي الهذيل العلاف – وكان متكلم زمانه: إنك لتناظر النظَّام وتدور بينكما نوبات، وأحسن[١٨] أحوالنا إذا حضرنا أن ننصرف شاكِّين في القاطع منكما والمنقطع، ونراك مع هذا يناظرك زنجَوَيه الحمال فيقطعك في ساعة.

فقال: يا قوم إن النظَّام معي على جادة واحدة لا ينحرف أحدنا عنها إلا بقدر ما يراه صاحبه فيذكره انحرافه ويحمله على سننه فأمرنا يقرب، وليس هكذا زنجويه الحمال فإنه يبتدئ معي بشيء ثم يطفر إلى شيء بلا واصلة ولا فاصلة، وأبقى فيُحكم عليَّ بالانقطاع، وذاك لعجزي عن رده إلى سنن الطريق الذي فارقني آنفًا فيه.

وقال فيلسوفٌ آخر: العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئًا في السر فضحه في العلانية.

قال أبو سليمان: وهذا صحيح، لأن حقيقة العادة في[١٩] الشيء المعهود عوده بعد عوده، فهي – أعني العادة – بالاستمرار الذي يقهر من اعتاده والخلوة حال والعلانية حال، والعادة بجريانها تهجم في

الحالين ولا تفرق، ولهذا ما قيل: العادة هي الطبيعة الثانية، كأن الطبيعة عادة ولكنها الأولى بالجبلة،[20] والعادة طبيعة ولكنها الأخرى بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار.

وقال فيلسوف: ما أكثر من ظن أن الفقير هو الذي لا يملك شيئًا كثيرًا! وهذا فقير من جهة العرض، فأما الفقير الطبيعي فالذي شهواته كثيرة وإن كان كثير المال، كما أن الغني الطبيعي لا يحتاج إلى شيء وإن كان قليل المال، أي الذي ملك نفسه وقمع شهواته وأخمد لهب إرادته، وقد ظن قومٌ أن الذين منعوا من الشهوات ورضوا بالزهد في اللذات خانوا الناس وحالوا بينهم وبين حظوظهم، وحرموهم ما هو لهم وصدوهم عن محبوباتهم، وهذا ظن خطأ، وأي مرادٍ في هذا للواعظين والمزهِّدين والذين وصوا وأشفقوا وردعوا عن الخوض في لذات النفوس الغضبية والبهيمية؟ والله ما كان ذلك منهم إلا على طريق النصيحة والشفقة والإعذار والإنذار، إلا أن يكون الذين ظنوا هذا إنما ظنوه، لأنهم رأوا بعض المزهدين راغبًا وبعض الناصحين غاشًّا وبعض الآمرين مخالفًا، وليس العمل على المحتال وعلى من آثر الغش في المقال، ولكن المرجع إلى ما يدل عليه الحق ويشهد له العقل ويصح فيه البرهان، أترى الفيلسوف غش في قوله لأصحابه: اقنعوا بالقوت وانفوا عن أنفسكم الحاجة ليكون لكم قربة إلى الله، لأن الله غير محتاج، فكلما احتجتم أكثر كنتم منه أبعد، واهربوا من الشر والإثم واطلبوا من الخير أعمه وأعظمه وأبقاه وأدومه، واعرفوا الأبد واطلبوا السرمد، فإن من طلب الأبد ثم وجد بقي على الأبد ومن طلب الأمد ثم وجد فني على الأمد.

الحاجة ذل والغنى عز والعز ضد الذل، فمن طلب العز في العاجلة فقد طلب الذل وهو لا يدري، ومن طلب العز في الآجلة فقد وجد العز وهو لا يدري.

في الحكمة[٢١] أن يقال: اصبر على الذل لتنال العز، وليس في الحكمة اثبت على العز لتنال الذل، هذا معكوس.

هوامش

(١) في «ب»: «أسباب إثباتها»، وفي «أ»: «إثبات إثباتها»، وكلتا العبارتين غير ظاهرة المعنى، فلعل الصواب ما أثبتنا.

(٢) في «ب»: «ما ينالها»، وفي «أ»: «مسابتها»، وهو تحريف في كلتيهما.

(٣) في كلتا النسختين: «بالتكون» بالباء، والصواب ما أثبتنا كما يظهر لنا.

(٤) في كلتا النسختين: «الدستبان»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا نقلًا عن كتاب الألفاظ الفارسية المعربة. والدستبان كلمة فارسية مركبة من كلمتين: دستان، وهو من اصطلاحات أصحاب الموسيقى وأصل معناه النغمة، وبان أي الذي يُضرب به، ويقال أيضًا دستاوان وهو معرب الأول.

(٥) قد سبق ما يفيد هذا المعنى في أول كلام أبي الحسن العامري فانظره.

(٦) يلاحظ أن تعبيره هنا بقوله «بمنزلة» في كلا الموضعين اللذين تحت هذا الرقم غير مناسب كما لا يخفى، والصواب أن يقول في كلا الموضعين: «التي هي ... إلخ.»

(٧) يعني كتاب «السماء والعالم» لأرسطو.

(٨) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «عند تكرر الحس».

(٩) في «ب»: «الاختيار».

(١٠) في «أ»: «أن فلانًا»، وهو تحريف.

(١١) في كلتا النسختين: «لو قلت عليه ذلك»، وهو تصحيف لا معنى له، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتناه.

(١٢) كذا في «ب»، والذي في «أ»: «وكما أن للحكيم»، وهو تحريف.

(١٣) في «أ»: «يعرف»، وهو تصحيف.

(١٤) عبارة «ب»: «حتى ينتهي من هذا الموجود إلى آخر الموجود الأعلى.» وهي غير مستقيمة.

(١٥) «وقال»: أي الوزير.

(١٦) كان صواب العبارة أن يقول: «وذلك لأن العاقل ... إلخ»، إذ لا يخفى أن الكلام الآتي تعليل لما سبق لا مثال.

(١٧) سنخ العقل: أصله.

(١٨) في كلتا النسختين: «قال: أحسن ... إلخ»، وقوله: «قال» زيادة من الناسخ.

(١٩) في كلتا النسختين: «عن الشيء».

(٢٠) في كلتا النسختين: «بالجملة»، وهو تحريف.

(٢١) عبارة «ب»: «وبيان الجملة أن يقال».

الليلة الثالثة والعشرون

وكان الوزير رسم بكتابة لُمعٍ من كلام الرسولﷺ، فأفردت ذلك في هذه الورقات، وهي:

قالﷺ: «أشد الأعمال ثلاثة: إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ من مالك، وشكر الله تعالى على كل حال.»

وقال الواقدي: لما غالظ خالد بن الوليد عبد الرحمن بن عوف قال النبيﷺ: «يا خالد، ذروا لي أصحابي، لو كان لك أُحدٌ ذهبًا تنفقه قراريط في سبيل الله لم تدرك غدوةً أو روحةً من عبد الرحمن.»

وقال عليه السلام: «إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تبشبش[1] الله إليه وإن أخرها أعرض عنه.»

وقال عليه السلام: «إنما فَدَك[2] طعمةٌ أطعمنيها الله حياتي ثم هي بين المسلمين.»

وقال عليه السلام: «المقوِّم قد يأثم ولا يغرم.»

وقال عليه السلام في دعائه: «اللهم اجمع على الهدى أمرنا، وأصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا، واجعل قلوبنا كقلوب خيارنا، واهدنا سواء السبيل، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واصرف عنا الفواحش ما

ظهر منها وما بطن، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ومعايشنا، اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم!»

وقيل لهﷺ: إن فلانًا استشهد. فقال: «كلا، إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم حنين اشتعلت عليه نارًا.»

وقالﷺ: «من اطَّلع من صُبْر[3] بابٍ ففقِئت عينُه فهي هدَر.»

وقالﷺ لرجل يذبح شاةً: «ارهِف شفْرتك، فإذا فريْت فأرِحْ[4] ذبيحتك ودعها تخُبُّ وتشخُب، فإن ذلك أمرى للدم وأحلى للحم.»

وقال عليه السلام: «خير الناس الغنيُّ الحفيُّ التقيُّ.»

وقال: «التاجر الصدوق إن مات في سفره كان شهيدًا، أو في حضَره كان صدِّيقًا.»

وقالﷺ: «ظهر المؤمن مِشْجبه، وبطنه خِزانته، ورجله مطيته، وذخيرته ربه.»

وقالﷺ: «ما نقص مالٌ من صدقة، فتصدقوا. ولا عفا رجلٌ عن مظلمةٍ إلا زاده الله عز وجل عزًّا وعفوًا، فاعفوا. ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألةٍ إلا فتح الله عليه سبعين بابًا من الفقر، فاستعفوا.»

وقال عليه السلام: «أجود الأعمال الجود في العسر، والقصد في الغضب، والعفو عند المقدرة.»

وقال عليه السلام: «إن بين مصراعَي باب الجنة مسيرة مائة عام، وليأتينَّ عليه يومٌ وهو كظيظٌ من الزحام.»

وفد على رسول اللهﷺ رسولُ قومٍ من بني عامر يستأذنه في المرعى حول المدينة، فقال عليه السلام: إنها ديارٌ لا تضيق عن جارنا، وإن جارنا لا يُظلم في ديارنا، وقد ألجأتْكم الآزمة،[٥] فنحن نأذن لكم في المرعى ونُشرككم في المأوى. على أن سرْحنا[٦] كسرْحِكم وعانِينا كعانيكم،[٧] ولا تعينوا علينا بعد اليوم. فقال: لا نعين عدوًّا ما أقمنا في جوارك، فإذا رحلنا فإنما هي العرب تطلب أثآرها وتشفي ذُحولها. فقال عليه السلام: يا بني عامر، أما علمتم أن اللؤم كلَّ اللؤم أن تنْحاشوا عند الفاقة وتثِبوا عند العزة. فقال: وأبيك إن ذلك للؤم ولن نبغيك غائلةً بعد اليوم. فقال: اللهم اشهد. وأذن لهم.

وسئلﷺ كيف يأتيه الوحي، فقال: «في مثل صَلْصلة الجرس ثم ينفصم.»

وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر، قال علي عليه السلام للمقداد: أعطني فرسك أركبه. فقال له رسول اللهﷺ: أنت تقاتل راجلًا خيرٌ منك فارسًا. قال: فركبه ووَتَر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فصرَمه، فضحك النبيﷺ حتى أمسك

على فيه، فلما رأى عليٌّ ضحكه غضب فسلَّ سيفه، ثم شد على المشركين فقتل ثمانيةً قبل أن يرجع، فقال عليٌّ صلوات الله عليه: لو أصابني شرٌّ من هذا كنتُ أهله حين يقول: «أنت تقاتل راجلًا خيرٌ منك فارسًا.» فعصيته.

وقالﷺ: «إن امرءًا عرف الله وعَبَده وطلب رضاه وخالف هواه لحقيقٌ بأن يفوز بالرحمة.»

لما ورد محمد بن مسلمة عن عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صنع عمرو له طعامًا ودعاه إليه فأبى محمدٌ، فقال عمرو: أتحرِّم طعامي؟ قال: لا، ولكني لم أُومَر به. فقال عمرو: لعن الله زمانًا عملنا فيه لابن الخطاب، لقد رأيتُه وأباه وإنهما لفي شملة ما تواري أرساغهما، وإن العاصي بن وائل لفي مقطعات الديباج مزررةً[٨] بالذهب. فقال محمد: أما أبوك وأبو عمر ففي النار، وأما أنت فلولا ما وليت لعمر لألفيتك معتقِلًا[٩] عنزًا يسرك غزرها[١٠] ويسوءك بكؤها.[١١] فقال عمرو: المجالس[١٢] أمانة. فقال محمد: أمَّا ما دام عمر حيًّا فنعم.

دخل النبيﷺ على فاطمة عليها السلام يعودها من علة فبكت، فقال رسول اللهﷺ: ما يبكيك؟ فقالت: قلة الطُّعْم، وشدة السُّقْم، وكثرة الهم.

قال عبد الله بن مسعود: شر الأمور محدثاتها، وشر الغنى غنى الإثم، وخير الغنى غنى النفس، والخمر جماع الإثم، والدنيا حِبالة الشيطان، والشباب شعبةٌ من الجنون.

قيل له: أتقول هذا من تلقائك؟ قال: لا، بل من تلقاء من فرض الله عليَّ طاعته.

وقال أبو ذر [رحمة الله عليه]: قال [لي] رسول اللهﷺ: يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرنَّ على اثنين، ولا تَولَّينَّ مال يتيم.

وقال أبو هريرة، عن النبيﷺ: ستحرصون على الإمارة وستكون حسرةً وندامةً يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة!

أبو أمامة يرفعه، قال: ما من رجلٍ يلي أمر عشرةٍ إلا يُؤتَى به يوم القيامة مغلولًا أطلقه العدل أو أوثقه الجور.

قال العباس للنبيﷺ: أمِّرْني يا رسول الله فأُصيب. (١٣)

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن رجلًا جاء إلى النجاشي فقال له: أقرضني ألف دينار إلى أجل. فقال: من الكفيل بك؟ فقال: الله. فأعطاه الألف. فلما بلغ الأجل أراد الردَّ فحبسته الريح، فعمل تابوتًا وجعل فيه الألف وغلَّفه وألقاه في البحر، وقال: اللهم أدِّ حَمالتك. فخرج النجاشي إلى البحر فرأى سوادًا، فقال: ائتوني به. فأتوه بالتابوت ففتحه فإذا فيه الألف. ثم إن الرجل جمع ألفًا بعد ذلك وطابت الريح، وجاء إلى النجاشي فسلم عليه، فقال له النجاشي: لا أقبلها منك حتى

تخبرني بما صنعت فيها. فأخبره بالذي صنع، فقال النجاشي: فقد أدى الله عنك، وقد بلغت الألفُ في التابوت، فأمسك عليك ألفك.[١٤]

رأى أبو هريرة رجلًا مع آخر، فقال: من هذا الذي معك؟ قال: أبي. قال: فلا تمش أمامه، ولا تجلس قبله، ولا تدْعه باسمه، ولا تستسبَّ[١٥] له.

قال أبو هريرة: كان جريجٌ يتعبد في صومعته فأتت أمه فقالت: يا جريج، أنا أمك كلمني. فقال: اللهم أمي وصلاتي. فاختار صلاتَه. فرجعت ثم أتته ثانيةً فقالت: يا جريج، كلمني. فصادفته يصلي فقال: اللهم أمي وصلاتي. فاختار صلاته. ثم جاءته فصادفته يصلي، فقالت: اللهم إن هذا ابني قد عقَّني فلم يكلمني فلا تمتْه حتى تريَه المومسات. ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتن. قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأةٌ من القرية فوقع عليها الراعي فحملت فولدت غلامًا، فقيل لها: ممن هذا؟ فقالت: من صاحب هذه الصومعة. فأقبل الناس إليه بفئوسهم ومساحيهم فبسروا به، فصادفوه يصلي فلم يكلمهم فأخذوا يهدمون ديره، فنزل وتبسَّم ومسح رأس الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضأن. فلما سمع القوم ذلك راعهم وعجبوا وقالوا: نحن نبني لك ما هدمنا بالذهب والفضة. قال: لا، أعيدوها كما كانت ترابًا. ثم عاد.

وقال أبو الدرداء: لا يُحافظ على سُبحة الضحى إلا أوَّاب.

وقال أيضًا: ليس على سارق الحمَام قطع.

وقال: إذا اخترتم أرضًا فلا تختاروا أرمينية، فإن فيها قطعةً من عذاب الله. يعني البرد.

أبو هريرة يرفعه: ويلٌ للعرفاء! ويلٌ للأمناء! ليتمنَّينَّ أقوامٌ يوم القيامة أنهم كانوا متعلقين بين السماء والأرض يتذبذبون من الثريا وأنهم لم يلوا عملًا.

قال النبيﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألةٍ وُكلْت إليها، وإن أُعطيتَها عن غير مسألةٍ أُعنت عليها.»

وقال النبيﷺ: «كلكم راع ومسئولٌ عن رعيته، فالأمير راعٍ على الناس وهو مسئولٌ أقام أمرَ الله فيهم أم ضيع، والمرأة راعيةٌ على بيتها وما وَليتْ من زوجها ومسئولةٌ عنهم أقامت أمر الله فيهم أم ضيعت، والخادم مسئولٌ عن مال سيده أقام أمر الله فيه أم ضيع.» هكذا رواه ابن عتبة عن نافع عن ابن عمر.

قال عياض الأشعري: قدِم أبو موسى على عمر ومعه كاتبٌ له فرفع حسابه، فأَعجب عمر. وجاء إلى عمر كتابٌ فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ قال: إنه لا يدخل المسجد. قال: لمَ؟ أجنبٌ هو؟ قال: إنه نصراني. قال: فانتهره وقال: لا تُدْنهم وقد أقصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأتمنهم وقد خوَّنهم الله.

قال عبد الله بن نافع: جاء رجلان من الأنصار إلى النبيﷺ يختصمان في مواريث بينهما قد درستْ ليس بينهما بينة، فقالﷺ: إنكم لتختصمون إليَّ وإنما [أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما] أقضي بينكم على نحو ما أسمع منكم، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذْه فإنما أقطع له قطعةً من نار يأتي بها إسطامًا[١٦] في عنقه يوم القيامة. قال: فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لأخي. فقالﷺ: أما إذ قلتما هذا فاذهبا فاستهما وتوخَّيا الحق، وليحلِّل كلٌّ واحد منكما صاحبه. وفي رواية أخرى: اذهبا فاصطلحا.

وروى ابن عباس أن رسول اللهﷺ كتب إلى النجاشي أصحمة: سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته. فكتب النجاشي: إلى محمد رسول اللهﷺ من النجاشي أصحمة بن أبجر: سلامٌ عليك يا نبيَّ الله من الله ورحمته وبركاته.

وقال النبيﷺ: «الكافر خَبٌّ[١٧] ضَبٌّ، والمؤمن دَعِبٌ لَعِب.»

وقال رجلٌ للنبيﷺ: اعدِل فإنك إلى الآن لم تعدل. فقال: ويلك! إذا لم أعدل أنا فمن يعدل؟!

وقالﷺ: «إن الواجِد[١٨] يُبيح ظهرَه وعرضه.»

وقال عمر: ردِّد الخصوم كي يصطلحوا.

وقال عليه السلام: لا تحلفوا بأيْمانكم، ومن حلف بالله فليصدق، ومن حُلِف له فليقبَل.

وقال: من حلف يمينًا كاذبة يقتطع بها مال امرئ مسلمٍ لقي الله وهو عليه غضبان.

وقال: من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ وليكفِّر عن يمينه.

وقال عليه السلام: لا تسافر المرأة ثلاثةَ أيامٍ إلا مع ذي مَحْرم.

حدثنا أبو السائب القاضي عُتبة بن عُبيد قال: حدَّثنا محمد بن المرزبان قال: حدثنا المغيرة قال: حدثنا محمد بن العباس المِنْقَري قال: كان شريكُ ابنُ عبد الله على القضاء بالكوفة، فقضى على وكيلٍ لعبد الله بن مصعب بقضاءٍ لم يوافق عبدَ الله، فلقي شريكًا ببغداد فقال له: قضيتَ على وكيلي قضاءً لا يوافق الحقَّ. قال: من أنت؟ قال: مَن لا تنكِر. قال: قد نكِرتُك أشد النكير. قال: أنا عبد الله بن مصعب. قال: فلا كبيرٌ ولا طيب. قال: كيف لا تقول هذا وأنت تشتم الشيخين؟ قال: من الشيخان؟ قال: أبو بكرٍ وعمر. قال: والله لا أشتم [أباك] وهو دونهما، فكيف أشتمهما وهما فوقي وأنا دونهما؟

وقال عقبة بن عامر الجهني: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يُؤتَى الدنيا ويوسَّع له فيها وهو لله على غير ما يحب إلا وهو مُسْتدرَج، لأن

الله تعالى يقول: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.» قال ابن الأنباري: قولهﷺ: «إلا وهو مستدرج» معناه إلا وهو مُسْتدعٍ هلَكته، مأخوذٌ من الدَّارج وهو الهالك، يقال: هو أعلم مَن دبَّ ودرَج، ويراد بدرَج: هلك، وبدب: مشى.

وقال سعيد بن عامر بن حُزَيْم عن النبيﷺ: «إن لله أمناءَ على خلقه يَضَنُّ بهم على القتل، يُعِيشهم في عافية ويميتهم في عافية.»

قال ناشرة بن سُمَيٍّ: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول يوم الجابية: إني قد نزعت خالدَ بن الوليد وأمَّرتُ أبا عبيدة. فقال رجلٌ: والله لقد نزعتَ عاملًا استعمله رسول اللهﷺ وأغمدتَ سيفًا سلَّه رسول الله ﷺ، ووضعتَ لواء شدَّه رسول اللهﷺ. فقال عمر: إنك لشابٌّ قريب القَرابة. وهذا القائل هو أبو عمرو بن حفص بن المغيرة ابن عم خالد.

قال قَبيصة بن المُخارِق: نهى رسول الله عن الطَّرْق[١٩] والعِيافة والخطِّ.

قال النبيﷺ: «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صلةٌ وصدقة.»

قبيصة بن المخارق وزُهير بن عمرو قالا: لما نزلتْ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، انطلق رسول اللهﷺ إلى رَضْمةٍ[٢٠] من جبلٍ فعلَا أعلاها حجرًا

وقال: يا بني عبد مناف، يا بني فهر، إنما مثَلي ومثَلكم كمثل رجلٍ رأى العدوَّ فانطلق يريد أهله، وخَشي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يهتف: واصباحاه!

النعمان بن بشير وقبيصة قالا: قال رسول اللهﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحدٍ ولا لحياته، ولكن الله إذا تجلَّى لشيء من خلقه خشَع.»

تزوَّج رجلٌ امرأةً فمات قبل أن يدخل بها ولم يسمِّ لها صَداقًا، فسئل ابنُ مسعود فقال: لها صداق إحدى نسائه، لا وَكْسَ ولا شطَط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام أبو سِنان في رهطٍ من أشجع فقالوا: لقد قضَى فيها بقضاء رسول اللهﷺ في برْوَع بنت واشِقٍ الأشجعية.

عُقبة السُلمي قال: قال رسول اللهﷺ: «إذا تباطأت المغازي وكثرت الغرائم واستُؤْثِر بالغنائم، فخير جهادكم الرِّباط.»

حِبَّان الأنصاري قال: إن رسول اللهﷺ خطب الناسَ يوم حنينٍ فأحلَّ لهم ثلاثة أشياء [كان نهاهم عنها، وحرَّم عليهم ثلاثة أشياء] كان الناس يحلِّلونها: [أحَلَّ لهم] (٢١) أكل لحوم الأضاحي، وزيارة القبور، والأوْعية. (٢٢) ونهاهم عن بِياع المغنم حتى يُقْسم، ونهاهم عن النساء من السبايا ألَّا يُوطَأنَ حتى يضعن أولادَهن، ونهاهم ألَّا تباع ثمرةٌ حتى يبدو صلاحُها ويُؤمَن عليها من العاهة.

وهب بن حذيفة: قال رسول اللهﷺ: الرجل أحق بمجلسه.

حسان بن ثابتٍ قال: لعن رسولُ اللهﷺ زائراتِ القبور.

قال مالك بن عُبادة الغافقيُّ: مرَّ رسول اللهﷺ بعبد الله بن مسعود فقال: لا تُكثر همَّك؛ ما يقدَّرْ يكنْ، وما تُرزَقْ يأتِكَ.

خالد بن عدي الجهني أن رسول اللهﷺ قال: من بلَغه معروفٌ من أخيه من غير مسألةٍ ولا إشراف نفسٍ فلْيَقْبله ولا يرُدَّه، فإنما هو رزقٌ ساقه الله إليه.

رافع بن مَكِيثٍ – أخو جُندَب بن مكيث – شهد الحديبية، قال: سمعت رسول اللهﷺ يقول: «حُسن الملَكة[٢٣] نماءٌ، وسوء الخُلق شؤم، والصَّدقة تدفع مِيتةَ السُّوء، والبِرُّ زيادةٌ في العمر.»

وقال النبيﷺ: إن يوم الجمعة يوم زينةٍ كيوم الفطر والنحر.

خبَّابُ بن الأَرَتِّ[٢٤] – وكان من أصحاب النبي – قال: إن رسول اللهﷺ صلى يومًا إلى جِدارٍ كثير الجِحَرة إما ظُهرًا أو عصرًا، فلما صلى خرجتْ إليه عقرب فلدغتْه فغُشِي عليه، فرقاه الناسُ فأفاق، فقال: «إن الله شفاني وليس برُقْيتكم.»

قال الوزير: ما أحسنَ هذا المجلسَ!

هوامش

(١) التبشبش من الله تعالى: الرضا والإكرام.

(٢) فدك: بلدة بخيبر.

(٣) صبر الباب وغيره بكسر الصاد وضمها: ناحيته وحرفه. والذي في كلتا النسختين «صبير»، ولم نجد له معنى يناسب السياق.

(٤) في كلتا النسختين: «فأرخ»، وهو تحريف، وما أثبتناه عن كتب الحديث.

(٥) الآزمة: الشدة.

(٦) السرح: المال السائم.

(٧) كذا وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين.

(٨) في بعض الروايات: «مزورة» بالواو قبل الراء، أي مزينة.

(٩) في العقد الفريد: «مقتعدًا».

(١٠) كذا في العقد الفريد، ج١، يريد غزارة لبنها، والذي في الأصل: «غروها»، وهو تحريف.

(١١) البكء: قلة اللبن.

(١٢) عبارة العقد الفريد: «هي عندك بأمانة الله.»

(١٣) كذا وردت هذه العبارة في كلتا النسختين، ولا معنى لقوله هنا «فأصيب». كما أن في العبارة نقصًا سقط من الناسخ. وقد رواها صاحب العقد الفريد كاملة في الجزء الأول، ص٢٤، طبع لجنة التأليف، فذكر أن العباس رضي الله عنه طلب من رسول الله ولاية، فقال له رسول الله: يا عمُّ، نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها.

(١٤) يلاحظ أن هذه القصة لا تدخل في كلام رسول الله الذي عنون به المؤلف هذا الباب، وكذلك بعض القصص الآتية بعد.

(١٥) أي لا تعرضه للسب بأن تسب أحدًا بأبيه فيسبَّ الآخر أباك.

(١٦) الإسطام: مسعار النار، وهي الحديدة التي تسعر بها.

(١٧) الخب: الخداع. والضب: الحقد. يريد ذا حقد، ووصفه بالمصدر.

(١٨) الواجد: ذو الوجد، وهو الغضب. يريد أن الغضب ينسيه حفظ ما يجب عليه حفظه.

(١٩) يريد بالطرق طرق الحصى، وبالخط الخط في الرمل لاستطلاع الغيب كما هو معروف.

(٢٠) الرضمة: الصخرة العظيمة.

(٢١) لم ترد هذه العبارة في الأصول.

(٢٢) في الأصل: «والأدعية»، وهو تحريف. ويريد بالأوعية أسقية النبيذ، وذلك أخذًا من قوله ﷺ في حديث آخر: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا لكم، ونهيتكم عن النبيذ إلا في سقاء فاشربوا في الأسقية كلها ولا تشربوا مسكرًا.» رواه مسلم.

(٢٣) حسن الملكة: أي حسن صحبة المرء لمن يملكهم من مماليكه ومواليه.

(٢٤) في الأصل: «ابن الأزرق»، وهو تحريف.

الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلةً فأكثرَ من حضر وصفَه بما لم يكن فيه فائدةٌ تعاد، ولا غريبةٌ تستفاد. فحكيتُ: إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفيلة لا تتولد إلا في جزائر البحار الجنوبيَّة وتحت مدار برج الحَمَل، والزَّرافةَ لا تكون إلا في بلاد الحبشة، والسَّمُّور وغزال المسك لا يكونان إلا في الصحارى الشرقية الشمالية. وأما الصقور والنسور والبُزَاة وما شاكلها من الطير فإنها لا تُفرِخ إلا في رءوس الجبال الشامخة، [والعُقاب[1] والنعام لا تُفْرخ إلا في البراريِّ والقفار والفلوات]، والوطواط والطِّيطَوَى[2]وأمثالهما من الطير لا تفرخ إلا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام، والعصافير والفواخت وما شاكلها من الطير لا تُفْرِخ إلا بين الأشجار والدِّحال[3] والقرى والبساتين.

وحدَّث ابن الأعرابي عن هشام بن سالم – وكان مسنًّا من رهط ذي الرُّمَّة – قال: أكلتْ حيةٌ بيض مُكَّاء[4] فجعل المكاء يشرشر[5]على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده وهمت به ألقى في فيها حَسَكةً، فأخذت بحلقها حتى ماتت.

وأنشد أبو عمرو الشيباني قول الأسَدي:

إن كنتَ أبصرتَني قُلًّا[6] ومُصْطَلَما   فربمـــا قتَـــل المكَّـــاءُ ثُعبانـــا

فقال حرس الله نفسه: من أين للحيوان غيرِ الإنسان هذه الفطنة [وهذه الفضيلة] وهذه الجُرْأَة وهذه الحيلة؟! فقلتُ: شيخنا أبو سليمان يقول في هذه الأيام – وقد جرى حديث الحيوان وعجائب أفاعيله: إن الإحساسات التي للحيوان على أصنافه لها غرضٌ عظيم، وبذلك الغرض لها تفاوتٌ [عظيم] ظاهرٌ وخافٍ، وأفعالٌ معهودة ونادرة، ولها أخلاق معروفة، ومعارف موصوفة. ولولا ذلك ما كان يقال: أَصْوَل من جمَل، وأغدر من ذئب، وأروغ من ثعلب، وأجبن من صِفْرِد، وأجمع من ذَرَّة،[٧] وآلف من كلب، وأهدَى من قَطاة، وأحذر[٨]من عقعق، وأزهَى من غراب، وأظلم[٩] من حية، وأشدُّ عداوةً من عقرب، وأخبث من قرد، وأحمق من حُبارَى، وأكذب من فاختة،[١٠] وألأم من كلبٍ على جيفة، وأعقُّ[١١] من ضب، وأبرُّ[١٢] من هرة، وأنفر من ظليم،[١٣] وأجرأ من ليث، وأحقد من فيل ... وعلى هذا.

قال: وكما أن بين آحاد نوع الإنسان تفاوتًا في الأخلاق، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوت. وكما أنه يزل بعضُ العقلاء فيركب ما لا يُظنُّ بمثله لعقله، كذلك يزلُّ ويغلَط بعضُ الحمقى فيأتي بما لا يُحسَب أن مثله يهتدي إليه، فليس العقل بحاظرٍ على صاحبه أن يندُر منه ما يكون من الحيوان. وأصناف الحيوان من الناس وغير الناس تتقاسم هذه الأخلاق بضروب المزاج المختلفة في الأزمان المتباعدة والأماكن المتنازحة، تقاسمًا محفوظ النِّسب بالطبيعة المستولية، وإن كان ذلك التقاسم مجهول النِّسب للغموض الذي يغلب عليه. وإذا عُرف هذا

الشرح وما أشبهه مما يزيده وضوحًا، زال التعجب الناشئ من جهل العلة وخفاء الأمر.

قال: ومن العجب أنَّا إذا قلنا: أروغ من ثعلب، وأجبن من صفرد، وأحقد من فيل؛ أن هذا الرَّوْغ وهذا الجبن وهذا الحقد في هذه الأصناف ليست لتكون[١٤] عُدَّةً لها مع نوع الإنسان، ولكن لتتعاطى أيضًا بينها، وتستعملها عند الحاجة إليها. وكما يشبَّه إنسانٌ لأنه[١٥] لصٌّ بالفأرة، أو بالفيل لأنه حقود، أو بالجمل لأنه صَئول؛ كذلك يشبَّه كلُّ ضرب من الحيوان في فعله وخُلقه وما يظهر من سِنْخه بأنه إنسان.

ويقال للبليد من الناس: كأنه حمار، ويقال للذكي من الخيل: كأنه إنسان. ولولا هذا التمازج في الأصل والجوهر والسِّنْخ والعنصر، ما كان هذا التشابه في الفرع الظاهر والعادةِ الجارية بالخبر والنظر.

فقال:[١٦] هذا كلامٌ لا مزيد عليه.

وقالت العلماء: إن هذا الاعتبار واصلٌ في الحقيقة إلى جنس النبات، فإن النخل والموز لا ينبتان إلا في البلدان الدَّفِئة والأرض اللينة التُّربة. والجوز والفستق وأمثالهما لا ينبتان إلا في البلدان الباردة [والأرض] الجبلية. والدُّلْب وأمَّ غَيْلان في الصحارى والقفار، والقصب والصفصاف على شطوط الأنهار.

قالوا: وهكذا أيضًا وصف الجواهر المعدنية كالذهب، فإنه لا يكون إلا في الأرض الرملية والجبال والأحجار الرِّخْوة. والفضة والنحاس والحديد لا تكون إلا في الأرض النَّدِيَّة والتراب اللين والرطوبات الدهنية. والأملاح لا تنعقد إلا في الأراضي [والبقاع] السَّبِخة. والجص والإسْفيداج لا يكونان إلا في الأرض الرملية المختلطة ترابُها بالحصى. والزَّاج لا يكون إلا في التراب العفِص. وقد أحصى بعض من عُنِي بهذا الشأن هذه الأنواع المعدنية فوجدها سبعمائة نوعٍ.

وقالوا: من الجواهر المعدنية ما هو صُلب لا يذوب إلا بالنار الشديدة، ولا يُكسر إلا بالفأس كالياقوت والعقيق. ومنها ترابيٌّ رِخْوٌ لا يذوب ولكن يَنْفرك كالملح والزاج والطِّلْق. (١٧) ومنها مائيٌّ رطب يَنْفر(١٨) من النار كالزئبق. ومنها هوائي دُهْني تأكله النار كالكبريت والزِّرْنيخ. ومنها نباتيٌّ كالمرجان. ومنها حيوانيٌّ كالدُّر. ومنها طَلٌّ منعقد كالعنبر والبادزهر، وذلك أن العنبر إنما هو طَلٌّ يقع على سطح ماء البحر ثم ينعقد في مواضع مخصوصةٍ في زمان مقدر، وكذلك البادزَهْر(١٩) فإنه طلٌّ يقع على بعض الأحجار ثم يَرْسَخ في خَلَلها ويغيب فيها، وينعقد في بقاعٍ مخصوصةٍ، في زمانٍ معلوم. وكالتَّرَنْجُبِين الذي هو طَلٌّ يقع على ضربٍ من الشوك. وكذلك اللُّكُّ فإنه يقع على نباتٍ مخصوصٍ ينعقد عليه. وكذلك الدُّر فإنه طَلٌّ يرسخ في أصداف نوعٍ من الحيوان البحري، ثم يغلُظ ويجمُد وينعقد فيه. وكذلك الموميا، وهي طل يرسخ في صخورٍ هناك ويصير ماء ثم ينزُّ من مسامَّ ضيقةٍ ويجمُد وينعقد. (٢٠)

والطل هو رطوبةٌ هوائية تجمد من برد الليل، وتقع على النبات والشجر والحجر والصخر. وعلى هذا القياس جميع الجواهر المعدنية، فإن مادتها إنما هي رطوباتٌ مائية وأنداءٌ وبخاراتٌ تنعقد بطول الوقوع ومَرِّ الزمان.

وقالت الحكماء الأولون: ها هنا طبيعةٌ تألف طبيعةً أخرى، وطبيعةٌ تلزَق بطبيعة أخرى، وطبيعةٌ تأنس بطبيعة. وطبيعةٌ تتشبَّه بطبيعة، وطبيعة تقهر طبيعة، وطبيعةٌ تخبُث مع طبيعة، وطبيعة تطيب مع طبيعة، وطبيعةٌ تفسد طبيعة، وطبيعة تُحمِّر طبيعة، وطبيعة تبيِّض طبيعة، وطبيعة تهرُب من طبيعة، وطبيعةٌ تبغِض طبيعة، وطبيعةٌ تمازِج طبيعة.

فأما الطبيعة التي تألف طبيعةً فمثل الماس فإنه إذا قرُب من الذهب لزق به وأمسكه، ويقال: لا يوجد الماس إلا في معدن الذهب في بلدٍ من ناحية المشرق.

ومثل طبيعة المغناطيس في الحديد، فإن هذين الحجرين يابسان صلبان وبين طبيعتيهما ألفة، فإذا قرب الحديد من هذا الحجر حتى يشم رائحته ذهب إليه والتصق به وجذب الحديد إلى نفسه وأمسكه كما يفعل العاشق بالمعشوق. وكذلك يفعل الحجر الجاذب للخزِّ،(٢١) والحجر الجاذب للشعر، والجاذب للتبن. وعلى هذا المثال ما من حجر من أحجار المعدن إلا وبين طبيعته وبين طبيعة شيء آخر إلفٌ واشتياق عُرف ذلك أو لم يُعْرف. ومثل هذا ما يكون بين الدواء والعضو العليل، وذلك

أن من خاصَّة كل عضوٍ عليلٍ اشتياقه إلى طبيعة الدواء التي هي ضد طبيعة العلة التي به، فإذا حصل الدواء بالقرب من العضو العليل وأحس به جذبته القوة الجاذبة إلى ذلك العضو، وأمسكت الممسِكة واستعانت بالقوة المدبرة لطبيعة الدواء على دفع الطبيعة المؤلفة للعلة، وقويت عليها ودفعتها عن العضو العليل، كما يستعين ويدفع المحاربُ والمخاصم بقوة من يعينه على خصمه وعدوه ويدفعه عن نفسه. وأما الطبيعة التي تقهر طبيعةً أخرى فمثل طبيعة السُّنْبَاذَج(٢٢) الذي يأكل الأحجارَ عند الحكِّ أكلًا ويُلِينها ويجعلها ملساء. ومثل طبيعة الأُسْرُب الوسخ في الماس القاهر لسائر الأحجار الصلبة، وذلك أن الماس لا يقهره شيءٌ من الأحجار وهو قاهر لها كلها، ولو تُرْك على السِّندان وطُرق بالمطرقة لدخل في أحدهما ولم ينكسر، وإن جُعل بين صفيحتين من أُسْرُبٍّ(٢٣) وضُمَّتا عليه تفتت. ومثل طبيعة الزئبق الطيار الرطب القليل الصبر على حرارة النار، إذا طُلِي به الأحجار المعدنية الصلبة مثل الذهب والفضلة والنحاس والحديد أوهَنَها وأرخاها حتى يمكن أن تُكْسَر بأهون سعيٍ وتتفتت قطعًا.

ومثل الكبريت المنتن الرائحة المسوِّد للأحجار النيِّرة البراقة المذهِب لألوانها وأصباغها، يمكِّن النار منها حتى تحترق في أسرع مدة. والعلة في ذلك أن الكبريت رطوبة دهنيةٌ لزجةٌ جامدة، فإذا أصابته حرارة النار ذاب والتزق بأجساد الأحجار ومازَجها، فإذا تمكنت النار منها احترق وأحرق معه تلك الأجساد ياقوتًا كانت أو ذهبًا أو غيرهما.

وأما الطبيعة التي ترسُب[٢٤] في طبيعة أخرى وتنيرها[٢٥] فمثل النُّوشاذَر الذي يغوص في قعر الأشياء ويغسلها من الوسخ.

وأما الطبيعة التي تُعين طبيعةً أخرى فمثل البَوْرَق الذي يعين النار على سبك هذه الأحجار المعدنية الذائبة، ومثلُ الزَّاجات والشُّبوب التي تجلوها وتنيرها وتصبغها، ومثل المَغْنيسيا والقِلْي[٢٦] المُعينَيْن على سبك الرمل وتصفيته حتى يكون منه زجاج، وعلى هذا المثال جميع الأحجار المعدنية.

النار هي الحاكمة بين الجواهر المعدنية بالحق.

ويقال: من أدمن الأكل والشرب في أواني النحاس أفسدت مزاجه، وعرض له أمراضٌ صعبة. وإن أُدْنِيت[٢٧] أواني النحاس من السَّمك شممتَ لها رائحةً كريهة، وإن كُبَّتْ آنية النحاس على سمك مشوي أو مطبوخ بحرارته حدث منه سمٌّ قاتل.

القَلْعِيُّ[٢٨] قريبٌ من الفضة في لونه، ولكن يخالفها في ثلاث صفات: الرائحة والرَّخاوة والصرير، وهذه الآفات دخلت عليه وهو في معدنه كما تدخل الآفات على المفلوج وهو في بطن أمه، فرخاوته لكثرة زئبقه، وصريرُه[٢٩] لغِلَظ كبريته.

ويقال: إن لون الياقوت الأصفر والذهب الإبريز، ولون الزعفران وما شاكلها من الألوان المشرقة منسوبةٌ إلى نور الشمس وبريق شعاعها.

وكذلك بياض الفضة والملح والبلَّوْر والقطن وما شاكله من ألوان النبات منسوبةٌ إلى نور القمر وبريق شعاعه. وعلى هذا المثال سائر الألوان.

وقال أصحاب النجوم: السواد لزُحَل، والحمرة للمِرِّيخ، والخضرة للمُشترِي، والزُّرْقة للزهرة، والصفرة للشمس، والبياض للقمر، والتلوُّن لعُطارد.

ويقال: إن العلة الفاعلة للجواهر المعدنية هي الطبيعة، والعلة الطينية الزئبق والكبريت، والعلة الصُّورية دوران الأفلاك وحركات الكواكب حول الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، والعلة التمامية المنافع التي ينالها الإنسان والحيوان.

ويقال: إن الجواهر المعدنية ثلاثة أنواع: منها ما يكون في التراب والطين والأرض [السَّبِخة، ويتم نضجُه في السنة وأقلَّ كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات وما شابهها.] ومنها ما يكون في قعر البحار وقرار المياه، ولا يتم نضجُه إلا في السنة [أو أكثر] كالدر والمرجان، فإن أحدهما نباتٌ وهو المرجان، والآخر حيوان وهو الدر.

ومنها ما يكون في وسط الحَجَر وكهوف الجبال وخلل الرمال فلا يتم نضجُه إلا في السنين، كالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وما شاكلها. ومنها ما لا يتم نضجُه إلا في عشرات السنين، كالياقوت والزَّبَرجد والعقيق وما شاكلها.

وقال بعض من حضر المجلس – وهو الرجل الفَدْم الثقيل: إن الزارِع لا يزرع طالبًا للعشب، بل قصده للحَب، ولا بدَّ للعشب من أن ينبت إن أحب أو كره، فلم ذلك؟ فقيل له: قد يصحب المقصودَ ما ليس بمقصود من حيث لا يتم المقصودُ إلا بما ليس بمقصود، والعشب هو فضلات الحب وبه صفاء الحَب وتمامُه، ولولا(٣٠) القوة التي تصفِّي الحب وتصوره بصورته الخاصة به، وتنفي كدرَه، وتُحصِّل(٣١) صفوَه؛ لكان العشب في بدَن الحب، وحينئذٍ لا يكون الحب المنتفَع به المخصوصُ باسمه المعروفُ بعينه، بل يكون شيءٌ آخر. فلما تميزت تلك الشوائب التي كانت ملابسةً له من أجزاء الأرض والماء وآثار الهواء والنار، خلَص منتفعًا به، مقصودًا بعينه، فوجب بهذا الاعتبار أن يكون الحَب بالذات والعُشب بالعرَض.

فقال – أدام الله دولته: هل تعرف العرب الفرق بين الروح والنفس في كلامها؟ وهل في لفظها من نظمها ونثرها ما يدل على ما بينهما، أو هما كشيء واحد لحقه اسمان؟

فكان الجواب: إن الاستعمال يخلط هذا بهذه وهذه بهذا في مواضع كثيرة، وإذا جاء الاعتبار أفرَد(٣٢) أحدَهما من الآخر بالحد والاسم، وعلى هذا اتفق رأي الحكماء، لأنهم حكموا بأن الروح جسمٌ لطيف منبثٌّ في الجسد على خاصٍّ ما له فيه. (٣٣) فأما النفس الناطقة فإنها جوهرٌ إلهي، وليست في الجسد [على خاص ما له فيه] ولكنها مدبِّرةٌ للجسد. ولم يكن الإنسان إنسانًا بالروح بل بالنفس، ولو كان

إنسانًا بالروحِ لم يكن بينه وبين الحمار فرق، بأن كان له روحٌ ولكن لا نفس له. فأما النفسان الأخريان اللتان هما الشهوية والغضبية فإنهما أشد اتصالًا بالروحِ منهما بالنفس، وإن كانت النفس الناطقة تدبرهما وتمُدُّهما وتأمرهما وتنهاهما. فهذا أيضًا يوضح الفرق بين الروحِ والنفس، فليس كل ذي روحٍ ذا نفس، ولكن كل ذي نفسٍ ذو روحٍ. وقد وجدنا في كلام العرب مع هذا الفرقَ بينهما، فإن [النابغة] قد قال للنعمان بن المنذر:

وأسكنتَ نفسي بعدما طار رُوحُها   وألبستني نُعمَى ولستُ بشاهدِ

وقال أبو الأسود:

لعمرك ما حَشَاكَ اللهُ رُوحًا   به جَشَعٌ ولا نفسًا شريرة

قال: هذا من الفوائد التي كنت أحِنُّ إليها، وأستبعد الظفَر بها، وما أنفعَ المطارحةَ والمفاتحة وبثَّ الشك واستماحة النفس! فإن التغافل عما تمَسُّ إليه الحاجةُ سوء اختيار، بل سوء توفيق.

وما أحسنَ ما قاله بعض الجِلة: تَوانيتُ في أوان التعلم عن المسألة عن أشياء كانت الحاجة تَحْفز إليها والكسل يصد عنها، فلما كبرتُ أَنِفتُ من ذكرها وعرضها على مَن عِلمُها عنده، فبقيت الجهالة في نفسي، وركدت الوحشةُ بين قلبي وفكري.

ثم جرى في حديث النفس ذكر بعض العلماء، فإنه قال: إن نفسك هي إحدى الأنفس الجزئية من النفس الكلية، لا هي بعينها ولا منفصلةٌ

عنها. كما أن جسدك جزءٌ من جسد العالم، لا هو كله ولا منفصلٌ عنه. وقد مرَّ من أمر النفس ما فيه إيضاحٌ تام واستبصارٌ واسع، وإن كان الكلام في نعت النفس لا آخر له ولا وقوف عنه.

ولو قال قائلٌ: إن جسدك هو كل العالم لم يكن مبطلًا، لأنه شبيهٌ به ومسلولٌ منه، وبحق الشبه يحكيه، وبحق الانسلال يستمد منه. وكذلك النفس الجزئية هي النفس الكلية، لأنها أيضًا مشاكِهةٌ لها وموجودةٌ بها، فبحق الشبه أيضًا نحكي حالها،(٣٤) وبحق الوجود تبقى بقاءها، فليس بين الجسد إذا أُضيف إلى العالم والنفس إذا قيست بالأخرى فرق، إلا أن الجسد معجونٌ من الطينة، والنفس مدبَّرةٌ بالقوة الإلهية. ولهذا احتِيج إلى الإحساس والموادِّ، وإلى الاقتباس(٣٥) والالتماس حتى تكون مدة الحياة الحسية بالغة إلى آخرها من ناحية الجسد، ويكون مبدأ الحياة النفسية موصولًا بالأبد بعد الأبد.

فقال أدام الله سعادته: لو كان ما يمر من هذه الفوائد الغُرر والمرامي اللِّطاف مرسومًا بسوادٍ على بياض، ومقيدًا بلفظٍ وعبارة؛ لكان له رَيْعٌ وإتاء، وزيادةٌ ونماء.

فكان الجواب: إن هذا غير متعذِّر ولا صعبٍ إنْ نَفَّس الله في البقاء، وصرف هذه الهموم التي تقسِّم الفكْر بالعوارض التي لا تُحتَسب والأسبابِ التي لا تُعرف. فأما والأشغال على تكاثفها والزمان على تلوُّنه

فكيف يمكن ذلك؟ والعجب أنه يجري حرفٌ من هذه الأمور الشريفة في هذه الأوقات الضيقة.

ولقد قال أبو سليمان أمسِ: كيف نشاط الوزير – أدام الله سعادته – في شأنه؟ وكيف كان تقبُّله لرسالتي إليه، وتلطُّفي له، وخدْمتي لدولته؟ فقلت: ما ثَم شيءٌ يحتاج إلى الزيادة من فهمٍ ودراية، وبيان واستبانة، وهشاشةٍ ورفق، واطِّلاعٍ وتأنٍّ. ولكن الوقت مستوعَبٌ بالتدبير والنظر، وكفِّ العدو بالمداورة مرة وبالإحسان مرة. فقال: الله يبقيه، ويرينا ما نحبه فيه.

وقال أيضًا أبو سليمان: كيف لا يكون ما تقلده ثقيلًا، وما تصدى له عظيمًا، وما يباشره بلسانه وقلمه صعبًا، والأولياء أعداء، والأعداء جهَّال، والحضُّ عليه من ورائه شديد، ونصيحُه غاشٌّ، وثقته[٣٦] مُريب،[٣٧] والشغبُ متصل، وطلب المال[٣٨] لا آخر له، والمصطَنع مستزيد، والمحروم ساخط، والمال ممزَّق، والتجديف[٣٩] من الطالب واقع، والتحكُّم بالإدلال دائم، والاستقالة من الكبير والصغير زائدة، والكلام ليس ينفع، والتدبُّر ليس يَقْمع، والوعظ هباءٌ منثور، والأصل مقطوعٌ مبتور، والسر مكشوف، والعلانية فاضحة، وقد ركب كلٌّ هواه، وليس لأحدٍ فكْرٌ في عقباه، واختلط المبرَم[٤٠] بالسَّحيل، وضاق على السالك كل سبيل، ومنابع الفساد ومنابت التخليط كلها من الحاشية [التي] لا تعرف نظام الدولة ولا استقامة المملكة، وإنما سؤلها[٤١] تعجيل حظٍّ وإن كان نزرًا، واستلاب درهمٍ وإن كان زيفًا؟ ولعمري ليس يكون الكدر إلا

بعد الصفو، كما لا يكون الصفو إلا بعد الكدر، هكذا الليل والنهار، والنور والظلام، هذا يخلف هذا، وهذا يتلو هذا.

قال: أعني بهذا أنه لما فُقد الملك السعيد – رضي الله عنه – بالأمس حدث هذا كله، فإنه كان قد زَمَّ وخَطَم، وجبَر وحطَم، وأسا وجرح، ومنع ومنح، وأورد وأصدر، وأظهر وستر، وسهَّل ووعَّر، ووعد وتوعد، وأنحس وأسعد. ووهب زمانه وحياته لهذا، لأنه جعل لذته فيه، وغايته إليه، واشتهى أن يطير صيتُه في أطراف الأرض فيسمع ملوكُها بفطنته وحزمه، وتصميمه وعزمه، وجده وتشميره، ورضاه في موضع الرضا، وسخطه في وقت السخط، ورفعِه لمن يرفعه بالحق، ووضعه لمن يضعه بالواجب. يجري الأمور بسنن الدين ما استجابت، فإن عصت أخذ بأحكام السياسة التي هي الدنيا. ولما كانت الأمور متلبسةً بالدين والدنيا لم يجُز للعاقل الحصيف، والمدبِّر اللطيف أن يُعمِل التدبير فيها من ناحية الدين فحسب، ولا من ناحية الدنيا فقط، لأن دائرة الدين إلهية، ودائرة الدنيا حسية، وفي الإحساس أحقادٌ لا بدَّ من إطفاء ثائرتها، وصنائع لا بدَّ من تربيتها، وموضوعاتٌ لا بدَّ من إشالتها،[٤٢] ومرفوعاتٌ لا بدَّ من إزالتها، وتدبيراتٌ لا بدَّ من إخفائها،[٤٣] وأحوالٌ لا بدَّ من إبدائها، ومقاماتٌ لا بدَّ من الصبر على عوارض ما فيها، وأمورٌ هي مسطورةٌ في كتب السياسات للحكماء لا بدَّ من عرفانها والعمل بها والمصير إليها، والزيادة عليها، فليس الخبر كالعِيان، ولا الشاهد كالغائب، ولا المظنون كالمستيقَن.

ثم قال – أعني أبا سليمان: وهذا كله منوطٌ بالتوفيق والتأييد اللذين إذا نزلا من السماء واتصلا بمفرق السائس تضامَّت أحوالُه على الصلاح، وانتشرت على النجاح، وكُفِي كثيرًا من همومه. ثم دعا للوزير بالبقاء المديد، والعيش الرغيد، والجد السعيد، وأمَّن الحاضرون على ذلك، وكانوا جمًّا غفيرًا، لا فائدة في ذكر أسمائهم والإشارة إلى أعيانهم. وكلهم لما سمعوا هذا الكلام الشريف عجبوا منه، وعوَّذوه وسألوه أن ينظم لهم رسالةً في السياسة، فقال: قد رسمتُ شيئًا منذ زمان وقد شاع وفشا، وكُتب وحُمل في جملة الهدية إلى قابوس بجرجان. فهذا – أيها الشيخ – نمط أبي سليمان وأنت عنه مشغول قد رضيتَ بترك النظر في أمره، وبذل الجاه له فيما عاد بشأنه، والله ما هذا لسوء عهدك فيه، ولا لحيلولة نيتك [عنه]، ولكن لقلة حظه منك، وإنحاء الزمان على كل من يجري مجراه مع عوَز مثله في عصره. وكيف تُتهم بسوء اعتقاد وقلة حفاظٍ، وتوانٍ عن رعاية عهدٍ وقيامٍ بحق، وأنت من فَرْقك إلى قدمك فضلٌ وخيرٌ وجود ومجدٌ وإحسانٌ وكرمٌ ومعونةٌ ورِفدٌ وإنعامٌ وتفقد وتعهد وبذلٌ وعرفٌ؟ ولو كان امرؤٌ من الذهب المصفَّى لكنته، [ولو كان أحدٌ من الرُّوح الصرف لكنته،] ولو كان أحدٌ من الضياء المحيط لكنته، فسبحان من خلقك صرفًا بلا مزاج، وصفوًا بلا كدر، وواحدًا بلا ثان! لقد فخر[٤٤] بك الشرق على الغرب، وسُلِّم لك بلا خصومةٍ ولا شغب. فأدام الله لك ما آتاك، وأفاض عليك من لدنه ما ينوِّر مسعاك، وبلَّغك السعادة العظمى في عقباك، كما بلَّغك السعادةَ الصغرى في دنياك.

أعرض أيها الشيخ هذا الحديث على ما ترى، والكلام ذو جَيَشان، والصدر ذو غليان، والقلم ذو نَفَيان[٤٥] ومتدفِّقه لا يُستطاع ردُّه، ومُنْبَعِثه لا يُقْدر [على] تسهيله، وخطْبه غريب، وشأنه عجيب، وإنما يعرف دِقَّه وجِلَّه من يذوق حلوه ومره. ومع هذا كله، فإني أذكِّرك أمري لتلحظه بعين الرعاية، وأعرض عليك حديثي لتحفظه في صحيفة العناية، فلقد أمسيتُ بين صديقٍ يشق عليَّ حُزنُه لي، وبين عدوٍّ تسوءني شماتته بي. وقد صح عندي أن إقبالك عليَّ يُسر، كما أن إعراضَك عني عسر، وأرجعُ إلى تمام هذين الجزأين وإنه أحرى. [٤٦]

وأما حديث الزهاد وأصحاب النسك، فإنه كان تقدم بإفراد جزء فيه، وقد أثبتُّه في هذا الموضع، ولم أحب أن أعزله عن جملته، فإن فيه تنبيهًا حَسنًا، وإرشادًا مقبولًا. وكما قصدنا بالهزل الذي أفردنا فيه جزءًا جِمامًا للنفس، قصدنا بهذا الجزء الذي عطفنا عليه إصلاحًا للنفس وتهذيبًا للخُلق، واقتداءً بمن سبق إلى الخير واتِّباعًا لمن قصد النصح. وشرف الإنسان موقوفٌ على أن يكون فاتحًا لباب من أبواب الخير على نفسه وعلى غيره، فإن لم يكن ذلك فلا أقل [من أن يكون] مقتفيًا لأثر من كان فاتحًا قبله. ومن تقاعس عن هذين الأمرين فهو الخاسر الذي جهل قيمة نفسه، وضل عن غاية حياته، وحُرِم التوفيق في إصابة رشده، والله المستعان.

قال ابن مسعود: لو عرفتِ البهائم ما عرفتم[٤٧] ما أكلتم سمينًا.

وقال أبو هريرة: اللهم إني أسألك قلبًا قارًّا، ورزقًا دارًّا، وعملًا سارًّا!

وقال بعض السلف: اللهم إني أسألك قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا صابرًا.

وقال صالح بن مسمار: لا أدري أنعمته عليَّ فيما بسط لي أفضل أم نعمته فيما زوى عني، لأنه فيما بسط لي أحياني، وفيما زوى عني حماني، نظر لي بما يزيد على نظري لنفسي، وآتاني من عنده أكثر مما عندي.

وقال الله عز وجل لموسى عليه السلام: حبِّبْني إلى عبادي. قال: وكيف أحبِّبك؟ قال: ذكِّرهم آلائي ونعمائي.

وقال شداد بن حكيم لبعض الواعظين: أي شيء تقول إذا جلست على المنبر؟ قال: أذكرهم آلاء الله ليشكروا، وأذكرهم جفاءهم ليتوبوا، وأخبرهم عن إبليس وأعوانه حتى يحذروا.

وقال بعض الصالحين: مثَل الدنيا ونعيمها كخابيةٍ فيها سُمٌّ وعلى رأسها عسلٌ، فمن رغب في العسل سُقي من السم. ومثل شدة الدنيا كمثل خابيةٍ مملوءةٍ من العسل وعلى رأسها قطراتٌ من سم، فمن صبر على أكلها بلغ إلى العسل.

جاء رجلٌ إلى حاتم الزاهد بنميمةٍ فقال: يا هذا أبطأتَ عني وجئت بثلاث جنايات: بغَّضت إليَّ الحبيب، وشغلتَ قلبي الفارغ، وأعلقت نفسك التهمة وأنت آمن.

وكان خالد بن صفوان يقول: قبول قول النمام شرٌّ من النميمة، لأن النميمة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبِل وأجاز.

وقال ابن السماك الواعظ: يُدرك النمام بنميمته ما لا يدرك الساحر بسحره.

وقال معمر: ما نزلت بعبدٍ نازلةٌ فكان مفزعه إلى الله إلا فرج الله عنه.

وقال عمر: ما أسأل الله الرزق وقد فرغ منه، ولكن أسأله أن يبارك لي فيه.

وقال مالك بن دينار: الجلوس مع الكلب خيرٌ من الجلوس مع رفيق سوء.

وقال أبو هريرة: تهادوْا عباد الله يتجدد في قلوبكم الود، وتذهب السخيمة.

وقال حاتم: صاحب الضِّغْن غير ذي دين، والغائب[٤٨] غير ذي عبادة، والنمام غير صدوق، والحاسد غير منصور.

وقال بعض السلف: من استقصى عيوب الناس بقي بلا أصدقاء.

وقال محمد بن واسع: ينبغي للرجل أن يكون مع المرأة كما يكون أهل المجنون مع المجنون، يحتملون [منه] كلَّ أذًى ومكروه.

قيل لمالك بن دينار: [لو تزوجتَ، قال:] [٤٩] لو استطعتُ لطلقتُ نفسي.

قال شقيق: اشتريت بطيخة لأمي فلما ذاقتها سخِطت. فقلتُ: يا أمي، على من تردِّين القضاء ومن تلومين؛ أحارثها أم مشتريها أم خالقها؟ فأما حارثُها ومشتريها فما لهما ذنب، فلا أراك تلومين إلا خالقها.

ويقال: إن عبدًا حبشيًّا ناوله مولاه [شيئًا يأكله]، وقال: أعطني قطعةً منه، فأعطاه، فلما أكله وجده مرًّا، فقال: يا غلام، كيف أكلتَ هذا مع شدة مرارته؟ قال: يا مولاي، قد أكلت من يدك حلوًا كثيرًا ولم أحب أن أريك من نفسي كراهةً لمرارته.

وأوحى الله تعالى إلى عُزير: إذا نزلت بك بليةٌ لا تشكني إلى خلقي كما لم أشكك إلى ملائكتي عند صعود مساوئك إليَّ، وإذا أذنبت ذنبًا فلا تنظر إلى صغره ولكن انظر من أهديته[٥٠] إليه.

وقال لقمان: إن الذهب يجرَّب بالنار، وإن المؤمن يجرَّب بالبلاء.

وقال بعض السلف: عليكم بالصبر فإن الله تعالى قال: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، وقال: إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وقال: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا، وقال: اصْبِرُوا وَصَابِرُوا، وقال: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ.

وقال الأوزاعي: المؤمن يُقِل الكلامَ ويُكثر العمل، والمنافق يكثر الكلام ويقل العمل.

وقال فضيل بن عياض: الخوف ما دام الرجل صحيحًا أفضل، فإذا نزل الموتُ فالرجاء أفضل.

وقال النبيﷺ: إياكم والخيانة، فإنها بئست البِطانة! وقال النبيﷺ: «من رد عن عرض أخيه ردَّ الله عن وجهه لفح النار يوم القيامة.»

ورُوِي: من وُقي شرَّ لَقْلَقه وقَبْقَبه وذَبْذَبه فقد وُقِي شِرَّةَ الشباب.[٥١]

وقيل لابن المبارك: إنك لتحفظ نفسَك من الغِيبة. قال: لو كنتُ مغتابًا أحدًا لاغتبت والديَّ، لأنهما أحق بحسناتي.

وقال بعض الصالحين: لو أن رجلًا تعشَّى بألوان الطعام وقد أصاب من النساء في الليل، ورجلًا آخر رأى رؤيا على مثال ما أصاب الأول في اليقظة، فإذا مضيا صار الحالمُ والآخرُ سواء.

وقال شقيق: من أبصر ثواب الشدة لم يتمنَّ الخروج منها.

وقال شقيق لأصحابه: أيُّما أحبُّ إليكم؛ أن يكون لكم شيءٌ على المَلِيء، أو يكون شيءٌ للمليء عليكم؟ فقالوا: بل[٥٢] نحب أن يكون لنا على المليء. فقال: إذا كنتم في الشدة يكون لكم على الله، وإذا كنتم في النعمة يكون لله عليكم.

وقال بعض السلف: شتان ما بين عملين: عملٍ تذهب لذتُه وتبقى تبعتُه، وعملٍ تذهب مئونته ويبقى ذُخْره.

وقال الرقاشي في مواعظه: خذوا الذهب من الحجر، واللؤلؤَ من المزبلة.

وقال يحيى بن معاذ: العلم قبل العمل، والعقل قائد الخير، والهوى مَرْكَب المعاصي، والمال داء المتكبر.

وقال: من تعلَّم علم أبي حنيفة فقد تعرَّض للسلطان، ومن تعلم النحو والعربية دُلِّه بين الصبيان، ومن عَلِمَ عِلْمَ الزهاد بلغ إلى العرش.

وقال بعض الصالحين: إن العلماء يسقون الناس، فبعضَهم من الغدران والحياض، وبعضَهم من العيون والقُلُب، وبعضَهم من البحار الواسعة.

وقال حاتم: لا تنظر إلى من قال، ولكن انظر إلى ما قال.

وقال مالك بن دينار: إني لا أقدر أن أعمل بجميع ما أقول.

وقال وُهَيْب بن الورد: مثَل عالم السوء كمثل الحجر يقع في الساقية، فلا هو يشرب الماء ولا يخلِّي عن الماء فيذهبَ إلى الشجرة.

وقال النبيﷺ: لأنَا من غير الدجال أخوف عليكم. قيل: ومن هو؟ قال: الأئمة المضلون.

وقال الثوري: نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، وفتنة القائد الجاهل!

وقال النبيﷺ: «سيكون في أمتي علماء فساق، وقراءٌ جهال.»

وقال الثوري: العلم طبيب الدين والمال داؤه، فإذا رأيت الطبيب يجُر الداء إلى نفسه فكيف يعالج غيره؟

وقال عيسى ابن مريم: ما ينفع الأعمى ضوء الشمس وهو لا يبصرها.

وقال النبيﷺ: «أشد الناس حسرةً يوم القيامة عالمٌ علم الناس ونجوْا به، وارتُهِن هو بسوء عمله.»

وقال أحمد بن حرب: إن منازل الدنيا لا تقطع بالكلام، فكيف يُقطع طريق الآخرة بالكلام؟

وقال أبو مسلم الخولاني: العلماء ثلاثة: رجلٌ عاش بعلمه وعاش به الناس، ورجلٌ عاش بعلمه ولم يَعش به الناس، ورجلٌ عاش بعلمه الناسُ وهلك هو.

وشاور رجلٌ محمد بن أسلم فقال: إني أريد أن أزوِّج بنتي فبمن أزوِّج؟ قال: لا تزوجها عالمًا مفتونًا، ولا كاسبًا[٥٣] كاذبًا، ولا عابدًا شاكًّا.

قيل: [٥٤]نصح إبليس فقال: إياك والكبر! فإني تكبرت فلُعنت. وإياك والحرص! فإن أباك حرَص على أكل الشجرة فأُخرج من الجنة، وإياك والحسد! فإن أحد بني آدم قتَل أخاه بالحسد.

ومرَّ حاتمٌ بقومٍ يكتبون العلم فنظر إليهم وقال: إن لم يكن معكم ثلاثة أشياء لن تفلحوا. قالوا: وما هي؟ قال: هَمُّ أمس، واغتنام[٥٥] اليوم، وخوف الغد.

وقال ابن عمر: كان في بني إسرائيل ثلاثةٌ خرجوا في وجهٍ، فأخذهم المطر فدخلوا كهفًا، فوقع حجرٌ عظيم على باب الكهف وبقوا في الظلمة، وقالوا: لا ينجينا إلا ما عملناه في الرخاء. فقال أحدهم: إني كنت راعيًا فأرحْت وحلبتُ، وكان لي أبوان وأولاد وامرأةٌ فسقيتُ أولًا الوالدَيْن ثم الأولاد، فجئتُ يومًا فوجدتُ أبويَّ قد ناما فلم أوقظهما لحرمتهما ولم أسْقِ[٥٦] الأولادَ، وبقيتُ قائمًا إلى الصبح، فإن كنتَ يا رب قبلتَ هذا مني فاجعل لنا فرجًا. فتحرك الحجر ودخل عليهم الضوء.

وقال الثاني: إني كنت صاحب ضياعٍ فجاءني رجل بعدما متَع النهار، وكان لي أُجَراء يحصدون الزرع فاستأجرتُه، فلما تم عملهم أعطيتهم أجورهم، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُه وافيًا كما أعطيتُ غيره، فغضبوا وقالوا: تعطيه مثل ما أعطيتنا؟ فأخذت تلك الأجرة واشتريت بها عِجَّوْلًا[٥٧] ونما حتى كثر البقر، فجاء صاحب الأجرة يطلب فقلت: هذه البقر كلها لك فسلمتها إليه، فإن كنتَ يا رب قبلتَ مني هذا الوفاء ففرِّج عنا. فتحرَّك الحجر ودخل منه ضوءٌ كثير.

وقال الثالث: كانت لي بنت عمٍّ فراودتها فأبت حتى أعطيتها مائة دينار، فلما أردت ما أردتُ اضطربت وارتعدت، فقلت لها: ما لك؟

فقالت: إني أخاف الله. فتركتُها ورجعت عنها، إلهي فإن كنتَ قبِلت ذلك مني ففرج عنا. فتحرك الحجر وسقط عن باب الكهف وخرجوا منه يمشون.

وقال حاتم: لو أُدْخلتِ السوقَ شياهٌ كثيرةٌ لما اشتَرى أحدٌ المهزول، بل يقصد السمين للذبح.

وقال يحيى بن معاذ: في القلب عيونٌ يَهيج منها الخيرُ والشر.

وقال بعض الصالحين في دعائه: اللهم إن أحدنا لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك لي أن تشاء ما يقربني إليك! اللهم إنك قدَّرت حركات العبد فلا يتحرك شيءٌ إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في هواك!

وقال قاسم بن محمد: [٥٨] لأنْ يعيش الرجل جاهلًا خيرٌ له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال الشعبي: لم يكن مجلسٌ أحب إليَّ من هذا المجلس، ولأنْ أبعُد[٥٩] اليوم عن بساطه أحب إليَّ من أن أُحبس فيه.

وقال حاتم: إذا رأيت من أخيك عيبًا فإن كتمته عليه فقد خنته، وإن قلته لغيره فقد اغتبته، وإن واجهته به فقد أوحشته. قيل له: كيف أصنع؟ قال: تَكني عنه، وتُعرِّض به، وتجعله في جملة الحديث.

وقال: إذا رأيت من أخيك زلةً فاطلب لها سبعين وجهًا من العلل، فإن لم تجد فلُمْ نفسك.

وقال إبراهيم بن جنيد: اتخِذ مرآتين، وانظر في إحداهما عيب نفسك، وفي الأخرى محاسن الناس.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا دار خراب وأخرب منها قلب من يعمرها، والآخرة دار عمران وأعمر منها قلب من يعمرها.

وقال ابن السماك: الدنيا كالعروس المجلُوَّة تشوَّفت لخطَّابها وفَتنت بغرورها، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والِهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها قاتلة.

وقال بعض العارفين: الدنيا أربعة أشياء: الفرح والراحة والحلاوة واللذة؛ فالفرح بالقلب، والراحة بالبدن، واللذة بالحلق، والحلاوة بالعين.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا خمر الشيطان، فمن سكر منها لم يُفِق إلا في مسكن النادمين.

وقال بعض السلف: الزهد خَلْعُ الراحة، وبذل الجهد، وقطع الأمل.

وقال الأنطاكي أحمد بن عاصم: الزهد هو الثقة بالله، والتبرؤ من الخلق، والإخلاص في العمل، واحتمال الذل.

وقال داود عليه السلام في دعائه: يا رازق النَّعَّاب في عُشه.

وقال بعض السلف: لو كنتَ على ذنَبِ الريح [لم] (٦٠) تفرَّ من رزقك.

وقال آخر: الإنسان بين رزقه وأجله إلا أنه مخدوعٌ بأمله. (٦١)

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام: خلقك ربك في أربع مراتب، فكنتَ آمنًا ساكنًا في ثلاث وقلقلتَ في الرابعة، أولاها في بطن أمك في ظلماتٍ ثلاث، والثانية حين أخرجك منه وأخرج لك لبنًا من بين فرْثٍ ودمٍ. والثالثة إذا فُطمت أطعمك المَريَّ الشهي، حتى إذا اشتدت عظامك وبلغتَ تمامك صرتَ خائنًا وأخذتَ في السَّرقة والحيلة.

وقال أنس: رأيت طائرًا أكمه فتح فاه فجاءت جرادة فدخلت فمَه.

وقال عيسى عليه السلام: يابن آدم، اعتبر رزقك بطير السماء، لا يزْرعن ولا يحصُدن وإله السماء يرزقُهنَّ. فإن قلت: لها أجنحةٌ فاعتبر بحمر الوحش وبقر الوحش ما أسمنها، [وما أبشَمَها] وأبدنَها!

وقال ابن السماك: لو قال العبد: يا ربِّ لا ترزقني، لقال الله: بل أرزقك على رغم أنفك، ليس لك خالقٌ غيري ولا رازقٌ سواي، إن لم أرزقك فمن يرزقك؟

وقيل لراهب: من أين تأكل؟ فقال: إن خالق الرَّحَى يأتي بالطحين.

وقال حاتم: الحمار يعرف طريق المعلَف، والمنافق لا يعرف طريق السماء.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألت راهبًا: من أين تأكل؟ قال: ليس هذا العلم عندي، ولكن سل ربي من أين يطعمني.

وقال حاتم: مثَل المتوكِّل مثَل رجلٍ أسند ظهره إلى جبل.

وقال بعض الأبرار: حسبك من التوكل ألا تطلب لنفسك ناصرًا غيره، ولا لرزقك خازنًا غيره، ولا لعملك شاهدًا غيره.

وقال عبد الحميد بن عبد العزيز: كان لأبي صديقٌ ورَّاق، فقال له [أبي] يومًا: كيف أصبحتَ؟ قال: بخير ما دامت يدي معي. فأصبح الوراق وقد شُلَّتْ يده.

قال أبو العالية: لا تتكل على غير الله فيكلَك الله إليه، ولا تعمل لغير الله فيجعل ثواب عملك عليه.

وقال رجلٌ لأبي ذرٍّ: أنت أبو ذرٍّ؟ قال: نعم. قال: لولا أنك رجل سوء ما أُخْرجتَ من المدينة. فقال أبو ذر: بين يديَّ عقبةٌ كئودٌ إن نجوتُ منها لا يضرني ما قلتَ، وإن أقع فيها فأنا شرٌّ مما تقول.

وقيل لفضيل: إن فلانًا يقع فيك. فقال: لأغيظنَّ من أمَره[٦٢] بذلك: اللهم اغفر له!

وقال رجل لأبي هريرة: أنت أبو هريرة؟ قال: نعم. قال: سارق الدَّريرة؟[٦٣] قال: اللهم إن كان كاذبًا فاغفر له! وإن كان صادقًا فاغفر لي! هكذا أمرني رسول اللهﷺ.

وقال رجل لابن مُكدَّم: يا كافر. قال: وجب عليَّ الشكر، حيث لم يجْر ذلك على لساني، ولم تجب عليَّ إقامة الحجة فيه. وقد طويتُ قلبي على جملة[٦٤] أشياء. قال: وما هن؟ قال: إن قلتَ ألف مرة لا أجيبُك مرة، ولا أحقد عليك، ولا أشكوك إلى أحد، وإن نجوتُ من الله عز وجل بعد هذه الكلمة شفعتُ لك. فتاب الرجل.

كان للحسن جارٌ نصراني، وكان له كَنيف على السَّطح، وقد نَقَب ذلك في بيته، وكان يتحلَّب منه البول في بيت الحسن، وكان الحسن أمر بإناء فوُضع تحته، فكان يُخرِج ما يجتمع منه ليلًا. ومضى على ذلك عشرون سنةً، فمرض الحسن ذات يومٍ فعاده النصراني، فرأى ذلك، فقال: يا أبا سعيد: مُذْ كم تحملون مني هذا الأذى؟ فقال: منذ عشرين سنةً. فقطع النصراني زُنَّاره وأسلم.

وجاءت جاريةٌ لمنصور بن مِهران بمرقةٍ فهراقتها عليه، فلما أحس بحرِّها نظر إليها، فقالت: يا معلم الخير اذكر قول الله. قال: وما هو؟ قالت: وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ. قال: كظمتُ. قالت: واذكر وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ. قال: قد عفوتُ. قالت: واذكر وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ. قال: اذهبي فأنت حُرَّة.

قال الحسَن: ما جرْعةٌ أحبُّ إليَّ من جرْعة مصيبةٍ ردها صاحبُها بصبرٍ، وجزعةِ غضبٍ ردَّها صاحبُها بحِلم.

وكان محمد بن المنكدر إذا غضب على غلامه يقول: ما أشبهَك بسيدك!

وقال أبو ذر: كيف يكون حليمًا من يغضب على حماره وسَخْله وهِرِّه؟

ومات ابنٌ للرشيد فجزِع جزعًا شديدًا، فوعظه العلماء فلم يتعظ. فدخل مخنَّث وقال: أتأذن لي في الكلام؟ قال: تكلم. فكشف عن رأسه وقام بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، أنا رجل وقد تشبَّهت بالنساء كما ترى، فأيُّ شيء كنتَ تصنع لو كان ابنك في الأحياء وكان على صورتي؟ فاتَّعَظ به وأخرج النواحات من الدار.

قال وهب: مكتوبٌ في الكتب القديمة: إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادي.

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام: حسنُ الجوار عمارة الديار ومَثراة المال.

ولما قرأ هذا الجزء – حرسه الله – ارتاح وقال: أين نحن من هذه الطريقة؟! إلى الله المشتكى.

هوامش

(١) في «ب» التي نقلت عنها هذه الزيادة وحدها: «والعطاف»، ولعل صوابه ما أثبتنا، إذ لم نجد العطاف فيما راجعناه من كتب الحيوان. وفي «كتاب حياة الحيوان» أن من أنواع العقاب ما يأوي إلى الصحارى.

(٢) الطيطوى: طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه، لأن هذا الطائر لا يأكل شيئًا من النبت ولا من اللحوم، وإنما قوته مما يتولد في شاطئ الغياض والآجام من دود النتن. والذي في «ب»: «والطَّوْطِيُّ». والطوطي هي الببغاء، وهو غير مراد هنا.

(٣) الدحال: جمع دحل، وهو نقب ضيق الفم متسع الأسفل حتى يُمشَى فيه، وربما نبت فيه السدر.

(٤) المكاء: طائر أبيض يصفِّر ويصيح في الرياض.

(٥) يشرشر: أي يرفرف، كما ذكره الدميري في حياة الحيوان في الكلام على المكاء.

(٦) في «أ»: «مذ أومضت ظلمًا»، وهو تحريف. وفي «ب»: «قدا»، وهو تحريف أيضًا، إذ لم نجد من معاني القد ما يناسب السياق. والقل من الناس (بضم القاف): الفرد الذي لا أحد له. والمصطلم: من الاصطلام، وهو الاستئصال، فلعله يريد الذي استؤصلت أهله ونصراؤه وبقي فردًا.

(٧) الذر: النمل الأحمر الصغير.

(٨) الذي وجدناه في كتاب حياة الحيوان في الأمثال التي قيلت في العقعق: ألصُّ من عقعق، وأحمق من عقعق. ولم نجد أنه قيل: أحذر من عقعق، كما هنا. فلعل قوله «أحذر» محرف عن أحمق. والعقعق: طائر على قدر

الحمامة، وهو على شكل الغراب، وجناحاه أكبر من جناحي الحمامة، وهو طويل الذنب.

(٩) يقال ذلك للحية، لأنها تأتي الجحر الذي لم تحتفره بل حفره غيرها فتسكنه.

(١٠) الفاختة: من الحمام ذوات الأطواق، وتوصف بحسن الصوت، ويصفونها بالكذب لأنهم يزعمون أنها تقول في صياحها: «هذا أوان الرطب» (بضم الراء) والنخل لم يطلع بعد. قال الشاعر:

أكـــــذب مــــــن فاختـــــــة تقـــــول وســــــط الكــــــرب
والطلــــع لــــم يبــــدُ لهــــا: هــــــــذا أوان الرُّطــــــــب

(١١) يقال: أعق من ضب، لما يقال من أن أنثاه تأكل أولادها.

(١٢) يقال هذا المثل لأنهم يزعمون أن الهرة تأكل أولادها لشدة حبها إياهم.

(١٣) الظليم: ذكر النعام.

(١٤) في كلتا النسختين: «ليست تكون»، والسياق يقتضي زيادة اللام كما أثبتنا.

(١٥) في الأصول: «بأنه»، وهو تحريف.

(١٦) «فقال»: أي الوزير.

(١٧) الطلق: حجر براق يتشظى إذا دُقَّ، يُتَّخذ منه مضاوئ للحمامات بدلًا من الزجاج، ويُحلُّ بأن يُجعل في خرقة مع حصوات ويُدخل في الماء الفاتر ثم يُحرك برفق حتى ينحلَّ ويخرج من الخرقة في الماء، ثم يُصفَّى عنه الماء ويُشمَّس ليجفَّ.

(١٨) في «أ»: يفر من النار.

(١٩) الذي وجدناه في مفردات ابن البيطار أن البادزهر حجر ينفع من السموم، ومنه الأصفر والأغبر والمنكت والمشرب بخضرة وغير ذلك، ومعادنه ببلاد الصين والهند، ولم نجد أنه طل منعقد في بعض الأحجار كما ذكره المؤلف هنا.

(٢٠) ذكر ابن البيطار من أنواع الموميا هذا النوع الذي ذكره المؤلف، فذكر أن هذا الاسم يقال على حجارة تكون بصنعاء اليمن سود، وفيها أدنى تجويف، وهي إلى الخفة تكسر فيوجد في ذلك التجويف شيء سيَّال أسود. وتُقْلى هذه الحجارة إذا كسرت في الزيت فتقذف جميع ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة. كما ذكر أنواعًا أخرى من الموميا فانظرها ثم.

(٢١) في كلا الأصلين: «للحمر»، وهو تحريف.

(٢٢) السنباذج: حجر يجلو به الصيقل السيوف، وتُجْلى به الأسنان، وهو حجر كأنه مجتمِع من رمل خشن.

(٢٣) الأسرب: الرصاص الأسود.

(٢٤) في كلتا النسختين: «تربي بطبيعة»، وهو تحريف. وما أثبتناه هو ما يقتضيه سياق الكلام الآتي.

(٢٥) في «ب»: «وتثيرها». وفي «أ»: «وتديرها»، وهو تحريف.

(٢٦) القلي، ويقال فيه قلى كإلى: هو شبُّ العصفر، ويُتخذ من حريق الحمض، وأجوده المتخذ من الحرض، وهو قلى الصباغين وبقية أنواعه تُستعمل في صناعة الزجاج (ابن البيطار).

(٢٧) في كلتا النسختين: «أدهنت»، وهو تحريف.

(٢٨) القلعي هو الرصاص الجيد. وفي نسخة: «القلي»، وهو تحريف، إذ الأوصاف التي ذكرها المؤلف هنا لا تنطبق على القلي الذي سبق التعريف به في الحاشية قبل السابقة، فانظرها ثمَّ.

(٢٩) لعله: «ورائحته»، إذ المعروف أن الكبريت سبب في الرائحة لا في الصرير. ويلاحظ أنه قد نقص التعليل لواحد من الثلاثة المذكورة قبل.

(٣٠) في كلتا النسختين: «ولولا أن القوة.» وقوله «أن» زيادة من الناسخ.

(٣١) في كلتا النسختين: «وتحضر»، وهو تحريف.

(٣٢) في كلتا النسختين: «قرب» وهو تحريف لا يستقيم به السياق.

(٣٣) في «ب»: «منه»، مكان قوله «فيه».

(٣٤) في الأصل: «تجد مالها» ولا معنى له. ولعل الصواب ما أثبتنا كما يقتضيه السياق.

(٣٥) في «ب»: «وإلى القياس».

(٣٦) في «أ»: ونفيه، وهو تحريف.

(٣٧) في كلتا النسختين: «قريب»، وهو تحريف.

(٣٨) في كلتا النسختين: «المجال».

(٣٩) في كلتا النسختين: «والتحريف»، وهو تحريف. والتجديف: الكفران بالنعمة.

(٤٠) المبرم: الذي أُحكم فتلُه. والسحيل: ضده.

(٤١) في كلتا النسختين: «نولها»، وهو تحريف.

(٤٢) في كلتا النسختين: «أسالبها»، وهو تحريف. وإشالة الشيء: رفعه.

(٤٣) في كلتا النسختين: «من أجفانها»، وهو تصحيف.

(٤٤) في «ب»: «تحريك»، وهو تحريف. وورد هذا اللفظ في «أ» مطموس الحروف، وما أثبتناه هو مقتضى السياق.

(٤٥) النفيان: من نفت السحابة الماء إذا نحَّته، أو من نفت الريح التراب إذا أطارته. وفي «أ»: «نقيان»، وهو تصحيف. وفي «ب»: «رميان».

(٤٦) في «ب»: وابتداء آخر.

(٤٧) في رواية: «ما عرفتم من الموت ما أكلتم منه سمينًا.»

(٤٨) يريد بالغائب من يغتاب الناس.

(٤٩) هذه التكملة أو ما يفيد معناها ساقطة من كلا الأصلين، والسياق يقتضي إثباتها.

(٥٠) من أهديته إليه. يريد الله سبحانه وتعالى، وعبارة الأصل: «من أهداه إليك.» وفيها تحريف ظاهر.

(٥١) اللقلق: اللسان. والقبقب: البطن. والذبذب: معروف.

(٥٢) في كلتا النسختين: «بلا»، وهو تحريف.

(٥٣) هذه الكلمة لم يرد منها في كلا الأصلين غير سين وباء وألف وحرفين مطموسين في أولها، ولعل الصواب فيها ما أثبتنا.

(٥٤) ورد في كلا الأصلين: «قيل النصح من إبليس قال إبليس»، ولعل صواب العبارة ما أثبتنا.

(٥٥) في الأصول: «واغتنام» بالنون، وهو تحريف.

(٥٦) في «أ»: «أفق»، وهو تحريف.

(٥٧) العجَّول والعجل واحد.

(٥٨) كذا في «أ»، والذي في «ب»: «محمد بن القاسم».

(٥٩) ورد كلام الشعبي هذا في نسخة واحدة دون الأخرى. ويشير إلى فساد العلماء وأنهم قد أصبحوا لا يرغب في الجلوس إليهم. والذي في النسخة: «أقعد اليوم على بساطه»، وهو تحريف.

(٦٠) هذه الكلمة لم ترد في نسخة «أ» التي وردت فيها وحدها هذه العبارة.

(٦١) في «أ» التي وردت فيها وحدها هذه العبارة: «بعمله». وما أثبتناه هو مقتضى السياق.

(٦٢) من أمره بذلك: يريد الشيطان.

(٦٣) الذريرة: ضرب من الطيب.

(٦٤) في كلتا النسختين: «خمسة»، ولعله محرف عما أثبتنا، إذ لم يذكر فيما بعد غير أربعة أشياء، أو لعل الخامسة قد سقطت من الناسخ.

الليلة الخامسة والعشرون

وقال – أدام الله دولته – ليلةً: أُحِبُّ أن أسمع كلامًا في مراتب النظْم والنثر، وإلى أي حدٍّ ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان، وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة.

فكان الجواب: إنَّ الكلام على الكلام صعب. قال: ولمَ؟ قلت: لأنَّ الكلام على الأمور المعتمَد فيها على صور الأمور وشُكولها التي تنقسم بين المعقول وبين ما يكون بالحس ممكن، وفضاء هذا متسع والمجال فيه مختلف.[1] فأما الكلام على الكلام فإنه يدور على نفسه، ويلتبس بعضُه ببعضه، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق، وكذلك النثر والشعر، وعلى ذلك.

وقد قال الناس في هذين الفنَّين ضروبًا من القول لم يَبعدوا فيها من الوصف الحسن، والإنصاف المحمود، والتنافس المقبول، إلا ما خالطه من التعصب والمَحْك، لأن صاحب هذين الخُلقين لا يخلو من بعض المكابرة والمغالطة، وبقدر ذلك[2] يصير له[3] مدخلٌ فيما يراد تحقيقه من بيان الحجة أو قصورها[4] عما يرام من البلوغ بها، وهذه آفةٌ معترضةٌ في أمور الدين والدنيا، ولا مطمع في زوالها، لأنها ناشئةٌ من الطبائع المختلفة، والعادات السيئة، لكني[5] مع هذه الشوكة الحادة، والخطة الكادَّة؛[6] أقول ما وعيتُه عن أرباب هذا الشأن والمنتمين[7] لهذا الفن،

وإن عَنَّ شيءٌ يكون شكلًا لذلك وصلته به تكميلًا للشرح، واستيعابًا للباب، وصمدًا[٨] للغاية، وأخذًا بالحِياطة، وإن كان المنتهى منه غير مطموع فيه، ولا موصولٍ إليه، والله المعين.

قال شيخنا أبو سليمان: الكلام ينبعث في أول مبادئه إما من عفو البديهة، وإما من كد الروية، وإما [أن يكون] مركبًا منهما وفيه قواهما بالأكثر والأقل. ففضيلة عفو البديهة أنه يكون أصفى، وفضيلة كد الروية أنه يكون أشفى، وفضيلة المركب منهما أنه يكون أوفى. وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل،[٩] وعيب المركَّب منهما بقدر قسطه منهما: الأغلب والأضعف. على أنه إن خلَص هذا المركب من شوائب التكلف، وشوائن التعسف، كان بليغًا مقبولًا، رائعًا حلوًا، تحتضنه الصدور، وتختلسه الآذان، وتنتهبه المجالس، ويتنافس فيه المنافس بعد المنافس. والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في هذا المركب الذي يُسمَّى تأليفًا ورصفًا. وقد يجوز أن تكون صورة العقل في [البديهة أوضح وأن تكون صورة الحس[١٠] في الروية] ألوح، إلا أن ذلك من غرائب آثار النفس ونوادر أفعال الطبيعة، والمدار على العمود الذي سلف نعته ورسا أصله.

وسمعت أبا عائذٍ الكرخي صالح بن علي يقول: النثر أصل الكلام والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع والفرع أنقص من الأصل، لكن لكل واحد منهما زائناتٌ وشائنات، فأما زائنات النثر فهي ظاهرةٌ، لأن

جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر، وإنما يتعرضون للنظم في الثاني بداعيةٍ عارضة، وسببٍ باعث، وأمرٍ معين.

قال: ومن شرفه أيضًا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها؛ منثورةٌ مبسوطة، متباينة الأوزان، متباعدة الأبنية، مختلفة التصاريف، لا تنقاد للوزن،(١١) ولا تدخل في الأعاريض. هذا(١٢) أمرٌ لا يجوز أن يقابله ما يدحضه، أو يُعترض عليه بما يُحْرِضه.(١٣)

قال: ومن شرفه أيضًا أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب، ولا توجد الوحدة غالبةً على شيء إلا كان ذلك دليلًا على حُسن ذلك الشيء وبقائه، وبهائه ونقائه.

قال: ومن فضيلة النثر أيضًا كما أنه إلهي بالوحدة، كذلك هو طبيعيٌ بالبدأة، والبدأة في الطبيعيات وحدة، كما أن الوحدة في الإلهيات بدْأة، وهذا كلامٌ خطير.

قال: ألا ترى أن الإنسان لا ينطق في أول حاله من لدن طفوليته إلى زمانٍ مديدٍ إلا بالمنثور المتبدد، والميسور المتردد. ولا يُلهم إلا ذاك، ولا يناغَى إلا بذاك. وليس كذلك المنظوم، لأنه صناعي، ألا ترى أنه داخلٌ في حصار العَروض وأسر الوزن وقيد التأليف، مع توقي الكسر، واحتمال أصناف الزحاف، لأنه لما هبطت درجته عن تلك الربوة العالية دخلته الآفة من كل ناحية.

قال: فإن قيل: إن النظم قد سبق العروض بالذوق، والذوق طباعي؛ قيل في الجواب: الذوق وإن كان طباعيًّا فإنه مخدوم الفكر، والفكر مفتاح الصنائع البشرية، كما أن الإلهام مستخدِم للفكر، والإلهام مفتاح الأمور الإلهية.

قال: ومن شرف النثر أيضًا أنه مبرأٌ من التكلف، منزهٌ عن الضرورة، غنيٌ عن الاعتذار والافتقار،[١٤] والتقديم والتأخير، والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مدوَّن في كتب القوافي والعروض لأربابها الذين استنفدوا غايتهم فيها.

وقال عيسى الوزير: النثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس، ولدخول النظم في طيِّ الحس دخلت إليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة، واحتيج إلى الإغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر.

وقال ابن طرَّارة –وكان من فصحاء أهل العصر بالعراق: النثر كالحرة، والنظم كالأمة، والأمة قد تكون أحسن وجهًا، وأدمث شمائل، وأحلى حركات، إلا أنها لا توصف بكرم جوهر الحرة، ولا بشرف عرقها، وعتق نفسها، وفضل حيائها.

وقال: ولشرف النثر قال الله تعالى في التنزيل: إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا، ولم يقل: لؤلؤًا منظومًا. ونجوم السماء منتشرة وإن كان انتثارها على نظام، إلا أن نظامها في حدِّ١٥ العقل، وانتثارها في حدِّ[١٥]

الحس، لأن الحكمة إذا غُطيت نفسُها[١٦] كانت الغلبة للصورة القائمة بالقدرة.

وقال أحمد بن محمد كاتب ركن الدولة: الكلام المنثور أشبه بالوشي والمنظوم [أشبه] بالنِّير المخطط، والوشْي يروق ما لا يروق غيره.

ويقال: كنا في نثار فلان، ولا يقال: كنا في نظام فلان.

وقال ابن هندو الكاتب: إذا نُظر في النظم والنثر على استيعاب أحوالهما وشرائطهما، والاطلاع على هواديهما وتواليهما كان أن المنظوم فيه نثرٌ من وجه، والمنثور فيه نظمٌ من وجه، ولولا أنهما يستهمان هذا النعت لما ائتلفا ولا اختلفا.

وقال ابن كعب الأنصاري: من شرف النثر أن النبيﷺ لم ينطق إلا به آمرًا وناهيًا، ومستخبرًا ومخبرًا، وهاديًا وواعظًا، وغاضبًا وراضيًا، وما سُلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر، ولا نُزِّه عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساويا لنطق بهما،[١٧] ولما اختلفا خُصَّ بأشرفهما الذي هو أجول في جميع المواضع، وأجلب لكل ما يُطلب من المنافع.

فهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لباغي هذا الشان، ولمن يتوخَّى حديثه عند كل إنسان.

وأما ما يفضل به النظم على النثر فأشياء سمعناها من هؤلاء العلماء الذين كانت سماءُ علمهم دَرُورًا، وبحرُ أدبهم متلاطمًا، وروض فضلهم

مزدهرًا، وشمس حكمتهم طالعة، ونار بلاغتهم مشتعلة، وأنا آتي على ما يحضرني من ذلك، منسوبًا إليهم، ومحسوبًا لهم، ليكون حقهم به مقضيًا، وذكرهم على مر الزمان طريًّا.

قال السلامي: من فضائل النظم أن صار [لنا] صناعةً برأسها، وتكلم الناس في قوافيها، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها، وتصرفوا بحورها، واطلعوا على عجائب ما استُخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة، وشواهد القدرة الصادقة، وما هكذا النثر، فإنه قصَّر عن هذه الذروة الشامخة، والقُلة العالية، فصار بذلك بِذلةً لكافة الناطقين من الخاصة والعامة والنساء والصبيان.

وقال أيضًا: من فضائل النظم أنه لا يُغنَّى ولا يُحدَى [إلا بجيده] ولا يؤهَّل للحن الطنطنة،[١٨] ولا يُحلَّى بالإيقاع الصحيح غيرُه، لأن الطنطنات والنقرات والحركات والسكنات لا تتناسب إلا بعد اشتمال الوزن والنظم عليها، ولو [كان] فُعل [هذا] بالنثر كان منقوصًا، كما لو لم يُفعل هذا بالنظم لكان محسوسًا. والغناء معروف الشرف، عجيب الأثر، عزيز [القدر]، ظاهر النفع في معاينة الروح، ومناغاة العقل، وتنبيه النفس، واجتلاب [الطرب]، وتفريج الكرب، وإثارة الهزة، وإعادة العزة، وإذكار العهد، وإظهار النجدة، واكتساب السلوة، وما لا يُحصى عدده.

ويقال: ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيتٌ من الشعر، ولا يقال: ما أحسن هذا الشعر لو كان فيه شيءٌ من النثر، لأن صورة المنظوم محفوظة وصورة المنثور ضائعة.

وقال ابن نباتة: من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني [أن] العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغويين يقولون: «قال الشاعر» و«هذا كثيرٌ في الشعر» و«الشعر قد أتى به»، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة والشعر هو الحجة.

وقال الخالع: للشعراء حلبة وليس للبلغاء حلبة، وإذا تتبعت جوائز الشعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء وولاة العهود والأمراء والولاة في مقاماتهم المؤرخة، ومجالسهم الفاخرة، وأنديتهم المشهورة؛ وجدتها خارجةً عن الحصر، بعيدةً من الإحصاء. وإذا تتبعت هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئًا من ذلك. والناس يقولون: ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشعر! ولا يقولون: ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النثر! وهذا لغنى الناظم عن الناثر، وفقر الناثر إلى الناظم، وقد قدم الناس أبا علي البصير على أبي العيناء، لأن أبا علي جمع بين الفضيلتين وضرب بالسيفين[١٩] في الحومتين، وفاز بالقِدحين المُعلَّيين[٢٠] في المكانين.

وقال لنا الأنصاري: سمعت ابن ثوابة الكاتب يقول: لو تصفحنا [ما صار إلى] أصحاب النثر من كتّاب البلاغة، والخطباء الذين ذبُّوا عن

الدولة، وتكلموا في صنوف أحداثها وفنون ما جرى الليل والنهار به [مما] فُتق به الرتق ورُتق به الفتق، وأصلح به الفاسد ولُمَّ به الشعث، وقُرِّب به البعيد وَبُعِّد به القريب، وحُقِّق به [الحق وأُبطل به] الباطل؛ لكان يوفى على كل ما صار إلى جميع من قال الشعر ولاك القصيد، ولَهِج بالقريض، واستماح بالمرحمة، ووقف موقف المظلوم، وانصرف انصراف المحروم. وأين من يفتخر بالقريض، ويدل بالنظم، ويباهي بالبديهة من وزير الخليفة، ومن صاحب السر، وممن ليس بين لسانه ولسان صاحبه واسطة، ولا بين أذنه وأذنه حجاب؟ ومتى كانت الحاجة إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء؟ ومتى قام وزير لشاعر للخدمة أو للتكرمة؟ ومتى قعد شاعرٌ لوزير على رجاء وتأميل؟(٢١) بل لا ترى شاعرًا إلا قائمًا بين يديْ خليفةٍ أو وزيرٍ أو أميرٍ باسط اليد ممدود الكف، يستعطف طالبًا ويسترحم سائلًا، هذا مع الذلة والهوان والخوف من الخيبة والحرمان، وخطر الرد عليه في لفظٍ يمر وإعرابٍ يجري واستعارةٍ تعرض وكنايةٍ تعترض، ثم يكون مقليًّا مَشينًا بما يظن به من الهجاء الذي ربما دلَّاه في حومة الموت، وقد برَّأ الله تعالى بإحسانه القديم ومنِّه الجسيم صاحب البلاغة من هذا كلِّه، وكفاه مئونة الغدر به، والضرر فيه.

قال: وكان ابن ثوابة إذا جال في هذه الأكناف لا يُلحق شأوه ولا يُشق غباره ولا يُطمع في جوابه.

قال: وله مناظراتٌ واسعةٌ في هذا الباب مع جماعةٍ من أهل زمانه ناقضوه وعارضوه وكاشفوه وواجهوه، فثبت لهم وانتصف منهم وأربى

عليهم، ولم يُقلع عن مسالطتهم[٢٢] ومبالطتهم إلى أن نكصوا على أعقابهم وراجعوا ما هو أولى بهم.

قال أبو سليمان: المعاني المعقولة بسيطةٌ[٢٣] في بحبوحة النفس، لا يحوم عليها شيءٌ قبل الفكر، فإذا لقيها الفكر بالذهن الوثيق والفهم الدقيق ألقى ذلك إلى العبارة والعبارة[٢٤] حينئذٍ تتركب بين وزنٍ هو النظم للشعر، وبين وزن هو سياقة [الحديث]. وكل هذا راجعٌ إلى نسبةٍ صحيحة أو فاسدة وصورةٍ حسناء أو قبيحة وتأليفٍ مقبولٍ أو ممجوج، وذوقٍ حلوٍ أو مر[٢٥] وطريقٍ سهلٍ أو وعر واقتضابٍ مفضَّلٍ أو مردود واحتجاجٍ قاطعٍ أو مقطوع، وبرهانٍ مسفرٍ أو مظلم ومتناولٍ بعيدٍ أو قريب ومسموعٍ مألوفٍ أو غريب.

قال: فإذا كان الأمر في هذه الحال على ما وصفنا فللنثر فضيلته [التي] لا تنكر، وللنظم شرفه [الذي] لا يُجحد ولا يستر، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر، والذي لا بدَّ منه فيهما السلامة والدقة وتجنب العويص وما يحتاج إلى التأويل والتخليص.

وقد قال بعض العرب: خير الكلام ما لم يُحتج معه إلى كلام.

ووقف أعرابيٌ على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه فحار وعجب وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخا العرب؟ قال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا.

وقال أعرابيٌ آخر:

ما زال أخذهمُ في النحو يعجمني[٢٦] حتى سمعتُ كلام الزَّنج والرومِ

وقال أبو سليمان: نحوُ العرب فطرة ونحوُنا فطنة، فلو كان إلى الكمال سبيلٌ لكانت فطرتهم لنا مع فطنتنا، [أو كانت فطنتنا لهم] مع فطرتهم.

وقال: لما تميزت الأشياء في الأصول تلاقت ببعض التشابه في الفروع، ولما تباينت الأشياء بالطبائع تألفت بالمشاكلة في الصنائع، فصارت من حيث افترقت مجتمعة ومن حيث اجتمعت مفترقة، لتكون قدرة الله عز وجل آتيةً على كل شيء وحكمته موجودةً في كل شيء ومشيئته نافذةً في كل شيء.

وقد أنشد بعض الأعراب ما يقتضي هذا المكان رسمَه فيه، لأنه موافق لما نحن فيه في ذكره ووصفه:

قال:

ماذا لقيتُ من المستعربين ومن تأسيس نحوهمُ هذا الذي ابتدعوا؟

إن قلتُ قافيةً فيه يكون لها معنًى يخالف ما قاسوا وما وضعوا

قالوا لحنتَ وهذا الحرف منخفضٌ وذاك نصبٌ وهذا ليس يرتفع

وحرَّشوا بين عبد الله واجتهدوا وبين زيدٍ وطال الضرب والوجع

إنـي نشـأت بـأرضٍ لا تُشـبُّ بهـا ... نـار المجـوس ولا تُبنـى بهـا البيـع

ولا يطـا القـرد والخنزيـر سـاحتها ... لكن بها الهَيْقُ والسِّيدان والصَّدَع[٢٧]

مـا كـل قـولي معـروفٌ لكـم فخـذوا ... مـا تعرفـون ومـا لـم تعرفـوا فـدعوا

كـم بـين قـومٍ قـد احتـالوا لمـنطقهم ... وآخـرين علـى إعـرابهم طُبِعـوا

وبـين قـوم رأوا شـيئًا معاينـةً ... وبـين قـومٍ روَوْا بعـض الـذي سـمعوا

فهذا هذا.

وقال أبو سليمان: البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر، [ومنها بلاغة الخطابة]، [٢٨] [ومنها بلاغة النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل]، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل.

قال: فأما بلاغة الشعر فأنْ يكون نحوُه مقبولًا، والمعنى من كل ناحية مكشوفًا، واللفظ من الغريب بريئًا، والكناية لطيفة، والتصريح احتجاجًا، والمؤاخاة موجودة، والمواءمة[٢٩] ظاهرة.

وأما بلاغة الخطابة[٣٠] فأن يكون اللفظ قريبًا،[٣١] والإشارة فيها غالبة، والسجع عليها مستوليًا، والوهم في أضعافها سابحًا، وتكون فقرها قصارًا، ويكون ركابها شوارد إبل.

وأما بلاغة النثر فأن يكون اللفظ متناولًا،[٣٢] والمعنى مشهورًا، والتهذيب مستعملًا، والتأليف سهلًا، والمراد سليمًا، والرونق عاليًا،

والحواشي رقيقة، والصفائح مصقولة، والأمثلة خفيفة المأخذ، والهوادي متصلة، والأعجاز مفصَّلة. [٣٣]

وأما بلاغة المثَل فأن يكون اللفظ مقتضبًا، والحذف محتملًا، والصورة محفوظة، والمرمى لطيفًا، والتلويح كافيًا، والإشارة مغنية، والعبارة سائرة. [٣٤]

وأما بلاغة العقل فأن يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، وتكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من ترصيع اللفظ وتقفية الحروف، وتكون البساطة فيه أغلب من التركيب، ويكون المقصود ملحوظًا في عُرض السَّنن،[٣٥]والمرمى يُتلقَّى بالوهم لحسن الترتيب.

وأما بلاغة البديهة فأن يكون انحياش[٣٦] اللفظ للفظ في وزن انحياش[٣٦] المعنى للمعنى، وهناك يقع التعجب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يُظن أنه يظفر به كمن يعثر بمأموله على غفلةٍ[٣٧] من تأميله، والبديهةُ قدرةٌ روحانية في جبِلةٍ بشرية، كما أن الروية صورةٌ بشرية في جبِلةٍ[٣٨] روحانية.

وأما بلاغة التأويل فهي [التي] تُحْوِج لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان يفيدان من المسموع وجوهًا مختلفة كثيرةً نافعةً، وبهذه البلاغة يُتسع في أسرار [معاني] الدين والدنيا، وهي [التي] تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز وجل وكلام رسولهﷺ في الحرام

والحلال، والحظر والإباحة، والأمر والنهي، وغير ذلك مما يكثر. وبها تفاضلوا، وعليها تجادلوا،[39] وفيها تنافسوا، ومنها استملَوْا، وبها اشتغلوا. ولقد فُقدت هذه البلاغة لفقد الروح كله، وبطل الاستنباط أوله وآخره، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا النمط في أعماق هذا الفن. وها هنا تنثال[40] الفوائد وتكثر العجائب وتتلاقح الخواطر وتتلاحق الهمم، ومن أجلها يُستعان بقوى[41] البلاغات المتقدمة بالصفات الممثَّلة،[42] حتى تكون معينةً ورافدةً في إثارة المعنى المدفون وإنارة المراد المخزون.

وأمثلة[43] هذه الأبواب موجودةٌ في الكتب، ولولا ذلك لرسمت في هذا المكان لكل فن مثالًا وشكَّلت شكلًا، ولو فعلتُ ذلك لكنت مكرِّرًا لما قد سُبق إليه، ومتكلفًا ما قد لُقِّن من قبل. على أن الزهد في هذا الشأن قد وضع[44] عنا وعن غيرنا مئونة الخوض فيه والتعني به والتوفر عليه، وتقديمه على ما هو أهم[45] منه، أعني طلب القوت الذي ليس إليه سبيل إلا ببيع الدين، وإخلاق المروءة، وإراقة ماء الوجه، وكدِّ البدن، [وتجرُّع الأسى، ومقاساة الحرقة، ومَضِّ الحرمان،] والصبر على ألوانٍ وألوان، والله المستعان.

وقد كان هذا الباب يُتنافس فيه أوانَ كان للخلافة بهجة، وللنيابة عنها بهاء، وللديانة معتقِد،[46] وللمروءة عاشق، وللخير منتهِز، وللصدق مؤثر، وللأدب شُراة،[47] وللبيان سوق، وللصواب طالب، وفي العلم راغب. فأما [اليوم] واليد عنه[48] مقبوضة، والذيل دونه مشمر،

والمتحلي بجماله مطرود، والمباهي بشرفه مبعَد، فما يُصنع به ولله أمرٌ هو بالغه؟

وقال ابن دأْب: قال لي [ابن] موسى: اجتمعنا عند عبد الملك بن مروان فقال: أي الآداب أغلب على الناس؟ فقلنا فأكثرنا في كل نوع، فقال عبد الملك: ما الناس إلى شيء أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون القول، ويتعاطَوْن البيان، ويتهادَوْن الحِكم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها،[٤٩] ويجمعون ما تفرق منها. إن الكلام فارقٌ للحكم بين الخصوم، وضياءٌ يجلو ظلَم الأغاليط، وحاجة الناس إليه كحاجتهم إلى موادِّ[٥٠] الأغذية.

وقد قال زهير:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدمِ

فقلنا: لم يقله زهير إنما قاله زيادٌ الأعجم. فقال: لا، قاله من هو أعظم تجربةً وأنطق لسانًا منه.[٥١]

وقال أبو العيناء: سمعت العباس بن الحسن العلويَّ يصف كلام رجل [فقال]: كلامه سمحٌ[٥٢] سهل، كأن بينه وبين القلوب نسب، وبينه وبين الحياة سبب، كأنما هو تحفة[٥٣] قادم، ودواء مريض، وواسطة قلادة.

ورأيت أبا إسحاق الصابي وهو يعجب من فصلٍ قرأه من كتاب ورد عليه، وهو: أشعر قلبك يأسَ مجاوز[٥٤] السبيل مقصِّرٍ عن الشوط.

وقال ابن ذكوان: سمعت إبراهيم بن العباس[٥٥] الصوليَّ يقول: ما سمعت كلامًا محدثًا أجزل في رقة، ولا أصعب في سهولة، ولا أبلغ في إيجاز من قول العباس بن الأحنف:

تعــاليْ نجــدِّد دارس العهــد بيننــا كلانـا علـى طـول الجفـاء ملـومُ

أناســـيةٌ مـــا كـــان بينـــي وبينهـــا وقاطعـــةٌ حبـــل الصـــفاء ظلـــوم؟

وفي الجملة، أحسن الكلام ما رق لفظه، ولطُف معناه، وتلألأ رونقه، وقامت صورته بين نظمٍ كأنه نثر ونثرٍ كأنه نظم، يُطْمع مشهودُه بالسمع، ويمتنع مقصودُه على الطبع. حتى إذا رامَه مريغٌ[٥٦] حلَّق، وإذا حلَّق[٥٧] أسفَّ، أعني يبعد على المحاول بعنف، ويقرب من المتناوِل بلطف.

وما رأيت أحدًا تناهى في وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة ابن جعفر في المنزلة الثالثة من كتابه، قال لنا علي بن عيسى الوزير: عرض عليَّ قدامة كتابه سنة عشرين وثلاثمائة، واختبرته[٥٨]فوجدتُه قد بالغ وأحسن، وتفرد في وصف فنون البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، مما يدل على المختار المجتبَى والمعيب المجتنَب. ولقد شاكَه[٥٩] فيه الخليلَ بن أحمد في وضع العروض، ولكني وجدته هجين اللفظ، ركيك البلاغة في وصف البلاغة،

حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه، وكأن ما يدُل به غير ما يدل عليه، والعرب تقول: [فلان] يدُل ولا يُدَل. حكاه ابن الأعرابي. وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم، وحسن التصور، وتوارد المعنى، ونقد الطبع، وتصرف[٦٠] القريحة. قال: ولولا أن الأمر على ما ذكرت لكان ذلك الطريق الذي سلكه، والفن الذي ملكه، والكنز الذي هجَم عليه، والنمط الذي ظفر به؛ قد[٦١] برز في أحسن معرض، وتحلى بألطف كلام، وماس في أطول ذيل، وسفر عن أحسن وجه، وطلع من أقرب نفق، وحلَّق في أبعد أفق.

وابن المراغي يقول كثيرًا – وهو شيخٌ من جلة العلماء، وله سهمٌ وافٍ في زمرة البلغاء: ما أحسن معونة الكلمات القصار المشتملة على الحِكم الكبار، لمن كانت بلاغتُه في صناعته بالقلم واللسان؛ فإنها توافيه عند الحاجة، وتستصحب أخواتها على سهولة، وهكذا مصاريع أبيات الشعر، فإنها تختلط بالنثر متقطعةً وموزونة ومنتثرةً ومنضودة.

قال [لي] ابن عُبيدٍ الكاتب: بلغني [هذا الوصف] عن هذا الشيخ، فبلوته بالتتبع فوجدته على ما قال، وما أشبه ما ذكره إلا بالصرة[٦٢] المُعدَّة عند الإنسان، لما يحتاج إليه في الوقت المهم والأمر الملمِّ، فهذا هذا.

فقال – أدام الله دولته وكبت أعداءه: قدِّم هذا الباب [فقد أتى][٦٣] على ما لم أظن أنه يُؤتَى عليه ويُهتدى إليه إذا شئتَ. وانصرفتُ.

هوامش

(١) في «ب»: «يمكن» مكان قوله: «يختلف».

(٢) في كلتا النسختين: «وبذلك القدر»، وفي كلتا الكلمتين تقديم وتأخير وقعا من الناسخ، وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا. ويشير «بذلك» إلى ما سبق من المكابرة والمغالطة.

(٣) كذا في «ب»، والذي في «أ»: يصير ذلك.

(٤) في كلتا النسختين: «وقصور».

(٥) في «أ»: «التي»، وهو تحريف.

(٦) في كلتا النسختين: «الكبرى»، وهو تحريف.

(٧) في «أ»: والقيمين بهذا الفن. والمعنى عليه يستقيم أيضًا.

(٨) صمدًا للغاية: أي قصدًا إليها.

(٩) في كلتا النسختين: «أكثر»، وهو غلط من الناسخ، صوابه ما أثبتنا كما هو المعروف في الفرق بين البديهة والروية، أو لعل الصواب «العقل» مكان «الحس» مع بقاء كلمة «أكثر».

(١٠) في كلتا النسختين «العقل» مكان «الحس»، وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا كما يُفهم من سياق الكلام.

(١١) في كلتا النسختين: «للذوق»، وهو تحريف.

(١٢) عبارة «ب»: «وهذا الفن.»

(١٣) يحرضه: أي يفسده. وفي «ب»: «يرحضه»، وهو تحريف.

(١٤) في كلتا النسختين: «والاعتقاد»، وهو تحريف.

(١٥) في الأصول: «في بلد» في كلا الموضعين، ولعل الصواب ما أثبتنا.

(١٦) في كلا الأصلين: «فطنت»، وهو تحريف. وورد بعد قوله «بالقدرة» قوله «أبلغ»، وهي زيادة من الناسخ لا مقتضى لها.

(١٧) في كلتا النسختين: «عنهما».

(١٨) الطنطنة: حكاية صوت الطنبور وشبهه.

(١٩) في كلتا النسختين: «وضرب بالشقين في الحرمين»، وهو تصحيف.

(٢٠) في كلتا النسختين: «المعلمين»، وهو تحريف.

(٢١) في كلتا النسختين: «على وجه وتأميل»، وهو تحريف في كلتا الكلمتين.

(٢٢) في «أ»: «مصالبتهم»، وفي «ب»: «مصالتتهم». وما أثبتناه هو أنسب بسياق العبارة. والمسالطة معروفة، والمبالطة: المجالدة والمنازلة.

(٢٣) بسيطة: أي مبسوطة.

(٢٤) في «أ»: «إلى العائدة والغابرة»، وهو تحريف.

(٢٥) في «أ»: «أو كريه».

(٢٦) في كلتا النسختين: «يعجبني»، وسياق البيت يقتضي ما أثبتنا.

(٢٧) الهيق: الظليم، وهو ذكر النعام. والسيدان: الذئاب، الواحد سيد بكسر السين. والصدع من الوعول والظباء وحمر الوحش والإبل: الشاب الفتي.

(٢٨) لم ترد هذه التكملة في كلتا النسختين، وقد أثبتناها لما سيأتي بعد من الحديث عنها عند تفصيل هذه الأنواع.

(٢٩) **في «ب»: والمراماة، وفي «أ»: والمراقبة، وهو تحريف في كلتا النسختين.**

(٣٠) **في كلتا النسختين: «الكتابة»، وهو تحريف لما فيه من التكرار، لأنه سيتكلم فيما بعد عن بلاغة النثر.**

(٣١) **في كلتا النسختين: «غريبًا» بالغين، ولعل صوابه ما أثبتنا.**

(٣٢) **في كلا الأصلين: «متبدلًا»، وهو تحريف.**

(٣٣) **في «أ»: «مقضاة»، وهو تحريف.**

(٣٤) **في «ب»: «سافرة».**

(٣٥) **وردت هذه الكلمة في «أ» مهملة الحروف من النقط، وفي «ب»: «السبب»، وهو غير واضح المعنى، ولعل صوابه ما أثبتنا. والسنن: الطريق.**

(٣٦) **في «ب»: «اختلاس»، ولم نتبين معناه، ولعله محرف عما أثبتنا.**

(٣٧) **في (أ، ب): «عقله»، وهو تحريف صوابه ما أثبتنا كما يقتضيه السياق، وفي «أ» أيضًا قبل هذه الكلمة قوله: «كمن يعبر بمقوله»، وهو تحريف كذلك.**

(٣٨) **في كلتا النسختين: «في حلية»، وهو تصحيف.**

(٣٩) **في «ب»: «يحاولوا»، وهو تحريف.**

(٤٠) **في «أ»: «تتقابل»، وهو تحريف.**

(٤١) **في «ب»: «توقى»، وهو تحريف.**

(٤٢) **في «أ»: «المشتملة»، وهو تحريف.**

(٤٣) يظهر أن هذا وما بعده من كلام المؤلف لا من تتمة كلام أبي سليمان.

(٤٤) في «أ»: «رصع»، وهو تحريف.

(٤٥) في «أ»: «أعم»، وهو تحريف.

(٤٦) في «ب»: «معقد»، وهو تحريف.

(٤٧) في كلتا النسختين: «شارة»، وهو تحريف.

(٤٨) «عنه»: أي عن هذا الباب السابق ذكره، وهو التأويل.

(٤٩) في «أ»: «مجانيها»، وهو تحريف.

(٥٠) في «أ»: «موارد»، وهو تحريف.

(٥١) في «أ»: «قوله»، وهو تحريف.

(٥٢) في «ب»: «شيخ»، وهو تحريف.

(٥٣) في «أ»: «حقه».

(٥٤) في «ب»: «مجاوزًا للشك مقصرًا عن القنوط»، وهو تحريف.

(٥٥) في «ب»: «ابن ذكوان»، وهو خطأ من الناسخ.

(٥٦) في «أ»: «مرتفع»، وهو تصحيف. والمريغ: الطالب.

(٥٧) إذا حلق: أي المريغ.

(٥٨) وردت هذه الكلمة في كلتا النسختين مهملة الحروف من النقط.

(٥٩) في «أ»: «سأله»، وهو تحريف.

(٦٠) في كلا الأصلين: «وتصور»، وهو تحريف.

(٦١) في كلتا النسختين: «وقد برز»، والواو زيادة من الناسخ كما هو ظاهر.

(٦٢) الصرة: كيس الدراهم والدنانير. والذي في كلا الأصلين: «الجمرة»، وهو تحريف لا يستقيم به الكلام.

(٦٣) هذه التكملة لم ترد في كلا الأصلين، وسياق الكلام يقتضي إثباتها.

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال: وما أمثلة الكلمات القصار التي أومأ إليها ذلك الشيخ؟

فكان [من] الجواب: إن هذا الباب واسع، نحو قول القائل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار. كل عزيزٍ دخل تحت القُدرة فهو ذليل. غنم من أدَّبته الحكمة، وأحكمته التجربة. التضاغن رائد التباين. المرء ما عاش في تجريب.

الـــــدهر [يـــــومٌ ويـــــومُ] والعـــــيش عـــــذلٌ ولـــــومُ

وأكثر أسباب النجاح مع الياسِ

من لم يقدمه حزم أخَّره عجز. كم مستدرَجٍ بالإحسان إليه، ومغترٍّ باليسر[1] عليه. الحرب[2] مَتْلَفة العباد،[3] مُذهبةٌ للطارف والتِّلاد.

ليس المُقلُّ عن الزمان براضي

من ضاق صدره اتسع لسانه.

وحسبك داءً أن تصح وتسلما

العيال سُوس المال. الموت الفادح خيرٌ من الزي الفاضح. احذروا نفاد النعم فما كل شاردٍ مردود. خير الأمور أوساطها. يكفيك من شرٍّ

سماعُه. الكريم لا يلين على قسر ولا يُقتسر على يُسر. ما أدرك النمَّام ثارًا ولا محا عارًا.

ومَن يَبكِ حولًا كاملًا فقد اعتَذَر

إن المطامعَ فقرٌ والغِنى الياسُ

والأمرُ تَحْقِره وقد يَنمِي

[رُبَّ كبيرٍ هاجَه صغيرُ

ذَهبَ القضاءُ بحيلة الأقوامِ]

وقد يُسْتجهَلُ الرجلُ الحليمُ

وإذا مضى شيءٌ كأنْ لم يُفعَل

من عُرف بالحكمة لاحظته العيون بالهيبة. البِطنة تُذهب الفطنة. إن المقدرة[٤] تُذهب الحفيظة. من ثقُل على صديقه خفَّ على عدوه. زيادة لسان على عقلٍ خدعة، وزيادة عقلٍ على منطق هُجنة.

وحاجة من عاش لا تنقضي

من أطاع هواه، أعطى عدوَّه مناه.

عند الشدائد تذهب الأحقاد

احذر صرَعات البغي وفلتات المزاح.

ومن يسأل الصُّعلوكَ أين مذاهبه؟

المرء يعجز لا المحالة

ذل الطالب بقدر حاجته. إذا ازدحم الجواب خفي الصواب. الكريم للكريم مُجِلٌّ. موتٌ في قوةٍ وعزٍّ خيرٌ من حياةٍ في ذلٍّ وعجز. عدل السلطان خيرٌ من خصب الزمان. من توقَّى سلِم ومن تهور ندم. من أسرع إلى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون. الضُّر[٥] خيرٌ من الفاقة. عَيٌّ صامت خيرٌ من عيٍّ ناطق. ربما سوَّد المالُ غير السيد، وقوَّى غير الأيِّد. وهل يدفع ريبَ المنية الحيَل؟

الموت حتمٌ في رقاب العباد

كفى بالإقرار بالذنب عذرًا، وبرجاء العفو شافعًا. قليلٌ يُوعَى، خيرٌ من كثير يُنسى. ليس على طول الخِدَم[٦] ندم، ومن وراء المرء ما لم يعلم. مروءتان ظاهرتان: الرئاسة[٧] والفصاحة. من أطال الأمل أساء العمل. لا تَكلَّفْ ما كُفِيت، ولا تضيع ما وَليت. احتمل من أدلَّ عليك، واقبل ممن اعتذر إليك.

إن الشجاعة مقرونٌ بها العطب

إن الكرام على ما نابهم صُبُرُ

لو سكت من لا يعلم سقط الاختلاف. لا عُذر في غَدر. ليس من العدل سرعة العَذْل. أقبح عمل المقتدرين الانتقام. شرٌّ من الموت ما يُتمنَّى له الموت. من جاع جشِع. المكيدة في الحرب أبلغ من النجدة. لك من دنياك ما أصلح مثواك. من أحبَّ أن يطاع لا يسألُ ما لا يستطاع. إذا غلبتْك نفسُك بما تظن فاغلبْها بما تستيقن. الرد الجميل أحسن من المطْل الطويل. القبر خيرٌ من الفقر. شفيع المذنب إقراره، وتوبته اعتذاره. صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار. لا كثير مع تبذير، ولا قليل مع تقدير. من صان لسانَه نجا من الشر كله.

ولربما نفع الفتى كذبه

فمن يُعْدي إذا ظلم الأمير؟

إذا فزع الفؤاد فلا رقاد

ما العلم إلا ما وعاه الصدر

إن الكريم على الإخوان ذو المال

إن الفرار لا يزيد في الأجل

إن الشفيق بسوء ظنٍّ مُولَع

لا تَبُلْ على أكمة، ولا تُفْش سرَّك إلى أمة. إذا أقبلت الدنيا على المرء أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. في التجارب علمٌ مستأنفٌ. قد خاطر من استغنى برأيه. عليك لأخيك مثل

الذي عليه لك. الحق ظلٌّ ظليل. المودة قرابةٌ مستفادة. معدِمٌ وَصُول خيرٌ من مكثرٍ جافٍ. من الفراغ تكون الصَّبْوة. من نال استطال. في تقلب الأحوال علم جواهر الرجال. الشكر عصمةٌ من النقمة. اللُّب مصباح العلم. من ركب العجلة لم يأمن الكبوة. إزالة الرواسي أيسر من تأليف القلوب. قارب الناسَ في عقولهم تسلم من غوائلهم وترتع في حدائقهم. عاشر أخاك بالحسنى. الحسد أهلك الجسد. خذ على خلائقك ميثاق الصبر. خير ما رُمت ما ينال.

كل امرئ في شأنه ساعي

[قد يدرك المتأني بعضَ حاجته وقد يكون مع المستعجِل الزللُ]

غم الفقير لا يكشفه إلا الموت. خفة الظَّهر أحد اليسارين. أصول الأسقام من فضول الطعام. طلاق الدنيا مهر الجنة. من عِزِّ النفس إيثار القناعة. التواضع بالغنيِّ أجمل، والكبر بالفقير أسمج. من استعان بغير الله لم يزل مخذولًا. من لم يقبل من الدهر ما آتاه طال عَتْبه على الدهر. عُجب المرء بنفسه أحد حُسَّاد عقله. العجز والتواني يُنتجان الفاقة. إن صبرتَ صبر الأحرار، وإلا سلوت سُلُوَّ الأغمار. العلم بالعمل ينمو. معاشرة الإخوان تجلو البصر، وتطرد الفِكَر. لا توحشْك الغربة ما أنسْت بالكفاية، فإن الفقر أوحش من الغربة. الغِنى أنسٌ في [غير] (٨) الوطن. الغنيُّ في الغربة موصول، والفقير في الأهل مصروم. أوحِش قرينك إذا كان في إيحاشه أنسك. إذا أيسرتَ فكل أهلٍ أهلك، وإن أعسرت فأنت

غريبٌ في قومك. من أخلاق الصبيان إلْف الأوطان، والحنين إلى الإخوان. من لم يأنف لم يشرُف. خير المودة ما لم تكن حِذارَ عادية ولا رجاء فائدة. من حمل الأمور على القضاء استراح في الإقبال والإدبار حتى ينتهيا. لو استحسن الناسُ ما أمر به العقل استقبَحوا ما نهى عنه العقل. أقدر الناس على الجواب من لا يغضب. الكلام في وقت السكوت عِي، والسكوت في وقت الكلام خرَس. الهمُّ يهدم البدن، وينغِّص العيش، ويقرِّب الأجل. الموت رقيبٌ غير غافل. المرء نهب الحوادث. إذا تم العقل نقص الكلام. هب ما أنكرت لما عرفت، واغفر ما أغضبك لما أرضاك. اليأس إحدى الراحتين. المطْل أحد العذابين. الكظم مر ولا يتجرعه إلا حر. الرأي لا يصلح إلا بالشَّرِكة، والمُلك لا يصلح إلا بالتفرد. من كبُر عنصره حسُن محضره.

ولربَّ مُطْمِعةٍ[٩] تعود رياحا

والحمد لا يُشترَى إلا بأثمان

ولكنَّ نكْء القَرْح بالقَرح أوجع

من أزهر بقول حَقيقٌ أن يثمر بفعل. السلام أرخى للبال، وأبقى لنفوس الرجال. حسبك من عقلك ما أوضح غيَّك من رشدك. التسويف بطاعة الله اغترار، وحياة المرء كالشيء المعار. [١٠] من بذل بعض عنايته لك، فاجعل جميع شكرك له.

وللحر من مال الكريم نصيب

اليوم فعل، وغدًا ثواب.

الخيـر مختـارٌ شـهيُّ المطلـبِ — والشـرُّ محـذور كريـهٌ مجتنَـبْ

رُبَّ سـكوتٍ مـن كـلامٍ أبلـغُ — ورُبَّ قـولٍ مـن عمـودٍ[11] أدمـغُ

مَن سلِم الناسُ على[12] لسانه — أصـبح منصـورًا علـى سـلطانه

مـن القليـل يُجمَـع الكثيـرُ — رُبَّ صـغير قَـدرُه كبيـرُ

من باع ما يَفْنى بما يبقى غَنِم — وآثر الـدنيا على الأخرى نَـدِم

قد يُحرَم الراجي ويُعطى القانطُ — ويُبعَـد الأدنـى ويُـدْنى الشـاحطُ

من لم يُنلْكَ البِرَّ[13] في حياتِه — لـم تبْـكِ عينـاك علـى وفاتِـه

المـالُ مـا تُنفِـق لا مـا تجمعُـه — والـزرعُ مـا تَحصُـد لا مـا تزرعُـه

يـا رُبَّ هـزلٍ كـان منـه الجِـدُّ — ورُبَّ مـزحٍ كـان منـه الحِقـدُ

البحر مستغنٍ عن الفرات

فقال – أدام الله أيامه: هذا فنٌّ مُوفٍ على الغاية.

هوامش

(١) في كلتا النسختين: «بالبشر»، وهو تصحيف.

(٢) في «أ»: «الحزن»، وهو تصحيف.

(٣) في «أ»: العيال، وهو تحريف.

(٤) كذا في مجمع الأمثال للميداني. والذي في الأصول: «الظنة تذهب ... إلخ»، وهو تبديل من الناسخ.

(٥) في كلتا النسختين: «الصبر»، وهو تحريف.

(٦) في «أ»: «الحياة»، وهو تحريف.

(٧) في «أ»: «الرياش».

(٨) لم ترد هذه الكلمة في كلتا النسختين، والسياق يقتضيها، ويقوي ذلك الكلمتان السابقة واللاحقة.

(٩) في «أ»: «مطعمة»، وهو تحريف.

(١٠) في كلتا النسختين: «المعتاد»، وهو تحريف.

(١١) يريد بالعمود: الذي يُضرب به في الحرب.

(١٢) «على» هنا بمعنى «من».

(١٣) في «أ»: «من لم يبكيك لكثر»، وهو تحريف.

الليلة السابعة العشرون

وقال - أدام الله أيامه - في ليلة أخرى: كنت أحب أن أسمع كلامًا في كُنه الاتفاق[1] وحقيقته، فإنه مما يحار العقل فيه، ويزلُّ حزم الحازم معه، وأحب أيضًا أن أسمع حديثًا غريبًا فيه. فكان من الجواب: إن الرواية في هذا الباب أكثر وأفشى من الاطِّلاع على سره، والظفر بمكنونه. فقال: هات ما يتعلق بالرواية. قلت: حكى لنا أبو سليمان في هذه الأيام أن ثيودسيوس[2] ملك يونان كتب إلى كُنتس[3] الشاعر أن يزوِّده[4] بما عنده من [كتب] فلسفية، فجمع ماله في عَيْبةٍ ضخمة، وارتحل قاصدًا نحوه، فلقي في تلك البادية قومًا من قطاع الطريق فطمعوا في ماله وهموا بقتله، فناشدهم الله ألا يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلوه فأبوا، فتحير ونظر يمينًا وشمالًا يلتمس معينًا وناصرًا فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء ومد طرفه في الهواء، فرأى كراكيَّ تطير في الجو محلقة، فصاح: أيتها الكراكيُّ الطائرة، قد أعجزني المعين والناصر فكوني الطالبة بدمي والآخذة بثأري. فضحك اللصوص، وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلًا، ومن لا عقل له لا جناح في قتله. ثم قتلوه وأخذوا ماله واقتسموه وعادوا إلى أماكنهم. فلما اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يُغنوا شيئًا ولم يقفوا على شيء. وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلهم لقراءة التسابيح والمذاكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر

وأوب وجاء القتلة واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين[٥] الهيكل. فهم على ذلك إذ مرت بهم كراكيُّ تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوهَهم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كراكي تصيح وتطير وتسد الجو فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالِبو دم كُنتس الجاهل – على طريق الاستهزاء – فسمع كلامهم بعضُ من كان قريبًا منهم، فأخبر السلطان فأخذهم وشدَّد عليهم وطالبهم فأقرُّوا بقتله فقتلهم. فكانت الكراكي المطالبةَ بدمه، لو كانوا يعقلون أن الطالب لهم بالمرصاد.

وقال لنا أبو سليمان: إن كنتس وإن كان خاطب الكراكي فإنه أشار به إلى رب الكراكي وخالقها، ولم يُطِلَّ الله دمه ولا سدَّ عنه باب إجابته، فسبحانه كيف يهيئ الأسباب، ويفتح الأبواب، ويرفع الحجاب بعد الحجاب!

فقال: هذا عجب.

قلت: قال لنا أبو سليمان: كل ما جُهل سببه من ناحية الحس بالعادة، ومن ناحية الطبيعة بالإمكان، ومن ناحية النفس بالتهيئة، ومن ناحية العقل بالتجويز، ومن ناحية الإله بالتوفيق؛ فهو معجوبٌ منه، معجوزٌ عنه، مسلَّمٌ لمن له القدرة المحيطة، والمشيئة النافذة، والحكمة البالغة، والإحسان السابق.

ولقد حكى أبو الحسن العُرضي في أمر الاتفاق شيئًا ظريفًا عن بعض إخوانه، قال: خرجنا إلى بعض المتنزهات ومعنا جَرٌّ[٦] نصيد به السُّمَانَى وكنا جماعة، فقال حدثٌ كان معنا – وكان أصغرنا سنًّا: أنتم تصيدون بجرٍّ٦ وأنا أصيد بيدي! يقول ذلك على جهة المزح، فرمى بعد قليل فاتفق له أن أثار سُمانَى، فأسرع إليه ونحن لا نعلم أنه أخذ شيئًا، فقلنا له على طريق العبث: احذر الخنزير – من غير أن نكون رأينا خنزيرًا – فالتفت فزعًا وفرَّ[٧] مُوليًا، فاتفق له أن رأى خنزيرًا منه غير بعيد، فأقبل إلينا مسرعًا هاربًا من الخنزير والسُّمانَى بيده وقد صاده.

وكنت في البادية في صفر سنة أربع وخمسين منصرفًا من الحج ومعي[٨] جماعةٌ من الصوفية، فلحقَنا جهدٌ من عوَز القوت وتعذُّر ما يُمسك الروح في حديث طويل، إلا أنَّا وصلنا من زُبالة[٩] – بالحيلة اللطيفة منَّا، والصنع الجميل من الله تعالى – إلى شيء من الدقيق، فانتعشتْ أنفسنا به، وغنمناه، ورأيناه نفحةً من نفحات الله تعالى الكريم، فجعلناه زادنا وسِرْنا، فلما بلغنا المنزل قعدنا لنمارس ذلك الدقيق، ولقطنا البعَر ودُقاق الحطب، فلما أجمعنا على العجن والمَلْك[١٠] لم نجد الحُراق[١١] وكان عندنا أنه معنا، وأننا قد استظهرناه،[١٢] فدخلتنا حيرة شديدة، وركبنا غمٌّ غالب، وسففْنا من ذلك الدقيق شيئًا فما ساغ ولا قبلته الطبيعة، وبتنا ليلتنا طاوين ساهرين قد علانا الكمد وملَكنا الوجوم والأسف، فقال بعضنا: هذا لمَّا وجدنا الدقيق؟! وأصبحنا ورُكَبنا قد استرخت، وعيوننا قد غارت، وأحدنا لا يحدث صاحبه غمًّا وكربًا، وعدنا إلى ما كنَّا فيه قبلُ بزيادة حسرةٍ من النظر إلى الدقيق، وقال

صاحبٌ لنا: نرمي بجراب الدقيق [حتى نلقي حمله وثقله في طول هذا الطريق.] فقلنا: ليس هذا بصواب، وما يضرنا أن يكون معنا، فلعلنا أن نرى ركبًا أو نلقى حطبًا؟ وكانت البادية خاليةً في ذلك الوقت، لرعبٍ لَحِق قومًا من بني كلاب من جهة أعدائهم، فلم يكن يجتاز بها [في ذلك الوقت] غريب. وبقينا كذلك إلى اليوم الثالث، ونحن نلاحق[١٣] ونجاهد في المشي. فلما كان العصرُ من ذلك اليوم كنت أسير أمام القوم أجرِّئهم[١٤] وأسألهم، وكنت كالحاطب[١٥] لهم: «إذا عثَرْنا بحُراقٍ[١٦] وظفرنا بفتيلة»، فوجدوا خرقةً ملفوفة فيها حُراق فهلَّلوا وكبروا ورفعوا أصواتهم، فقلت كالمتعجب: ما الخبر؟! قالوا: البشرى. قلت: وما ذاك؟ قالوا: هذه خِرقة مُلئت حُراقًا، فلا تسل عمَّا دهانا من الفرح والاستبشار، وثاب إلينا من السرور والارتياح، وزال عنا من الانخزال والانكسار. وقعدنا في مكاننا ذلك، ولقطنا البعَر، وأثرنا الوقود، وأجَّجنا نارًا عظيمة، وملَكْنا[١٧] الدقيق كله مَلْكةً واحدةً وكان أربعين رِطْلًا، وكان ذلك بلاغنا إلى القادسية. فلما دنونا منها تلقانا بشر من أهلها، وقالوا لنا: كيف سلمتم في هذه الطريق مع العوَز والخوف؟ فقلنا: لطف الله يقرب كلَّ بعيد، ويسهِّل كل شديد، ويصنع للضعيف حتى يتعجب القوي.

وليس أحدٌ من خلق الله يجحد هذا القول وينكر هذا الفضل، ويرجع إلى دينٍ وثيقٍ أو واهٍ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ.

وحدثني أبو الحسن علي بن هارون الزَّنْجاني القاضي صاحب المذهب قال: اصطحب رجلان في بعض الطرق مسافرَين: مجوسيٌّ من

أهل الرَّيِّ، والآخر يهوديٌّ من أرض جَيٍّ،(١٨) وكان المجوسي راكبًا بغلة له عليها سُفرة(١٩)من الزاد والنفقة وغير ذلك وهو يسير مرفَّهًا وادعًا، واليهودي يمشي بلا زادٍ ولا نفقة. فبينا هما يتحادثان إذ قال المجوسي لليهودي: ما مذهبك وعقيدتك يا فلان؟ قال اليهودي: أعتقد أن في هذه السماء إلهًا هو إله بني إسرائيل، وأنا أعبده وأقدسه وأضرع إليه، وأطلب فضل ما عنده من الرزق الواسع والعمر الطويل، مع صحة البدن والسلامة من كل آفة والنصرة على عدوي، وأسأله الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي فلا أعبأ بمن يخالفني، بل أعتقد أن من يخالفني دمه لي يحل، وحرام عليَّ نصرته ونصيحته والرحمة به. ثم قال للمجوسي: قد أخبرتك بمذهبي وعقيدتي وما اشتمل عليه ضميري، فخبرني أنت أيضًا عن شأنك وعقيدتك وما تدين به ربَّك؟ فقال المجوسي: أما عقيدتي ورأيي فهو أني أريد الخير لنفسي وأبناء جنسي، ولا أريد لأحدٍ من عباد الله سوءًا ولا أتمنى له ضرًّا لا لموافقي ولا لمخالفي. فقال اليهودي: وإن ظلمك وتعدى عليك؟ قال: نعم، لأني أعلم أن في هذه السماء إلهًا خبيرًا عالمًا حكيمًا لا تخفى عليه خافيةٌ من شيء، وهو يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فقال اليهودي: يا فلان، لست أراك تنصر مذهبك وتحقق رأيك. قال المجوسي: كيف ذاك؟ قال: لأني من أبناء جنسك وبشرٌ مثلك وتراني أمشي جائعًا نصبًا مجهودًا وأنت راكبٌ وادعٌ مرفَّهٌ شبعان. فقال: صدقتَ، وماذا تبغي؟ قال: أطعمني من زادك، واحملني ساعةً فقد كلَلْت وضعُفت. قال: نعم وكرامة. فنزل ومدَّ من سفرته وأطعمه وأشبعه ثم أركبه ومشى ساعة يحدثه.

فلما ملك اليهودي البغلة وعلم أن المجوسي قد أعيا، حرَّك البغلة وسبقه وجعل المجوسيُّ يمشي ولا يلحقه، فناداه: يا فلان، قف لي وانزل فقد انحسرتُ وانبهرتُ. فقال اليهودي: ألم أخبِّرك عن مذهبي وخبَّرتني عن مذهبك ونصرتَه وحققتَه؟ فأنا أريد أيضًا أن أحقق مذهبي وأنصر رأيي واعتقادي. وجعل يحرك البغلة والمجوسيُّ يقفوه على ظَلَع وينادي: قف يا هذا واحملني ولا تتركني في هذا الموضع فيأكلني السبُع وأموت ضَياعًا وارحمني كما رحمتك. واليهودي لا يُلْوي على ندائه واستغاثته حتى غاب عن بصره. فلما يئس المجوسيُّ منه وأشفى على الهلَكة ذكر اعتقادَه وما وصف به ربَّه فرفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي، قد علمتَ أني اعتقدتُ مذهبًا ونصرتُه ووصفتك بما أنت أهله وقد سمعتَ وعلمتَ، فحقِّق عند هذا الباغي عليَّ ما مجَّدتك به ليعلم حقيقةَ ما قلتُ. فما مشى المجوسي إلا قليلًا حتى رأى اليهوديَّ وقد رمت به البغلة واندقَّت عنقه وهي واقفةٌ ناحيةً منه تنتظر صاحبها. فلما أدرك المجوسيُّ بغلته ركبها ومضى لسبيله، وترك اليهوديَّ معالجًا لكرب الموت، فناداه اليهودي: يا فلان، ارحمني واحملني ولا تتركني في هذه البرِّيَّة أهلِكْ جوعًا وعطشًا، وانصر مذهبك وحقِّق اعتقادك. قال المجوسي: قد فعلتُ ذلك مرتين، ولكنك لم تفهم ما قلت لك ولم تعقل ما وصفتُ. فقال اليهودي: وكيف ذلك؟ قال: لأني وصفت لك مذهبي فلم تصدقني في قولي حتى حققته بفعلي، وذاك أني قلت: إن في هذه السماء إلهًا خبيرًا عادلًا لا يَخفى عليه شيء، وهو وليُّ جزاء المحسن[٢٠] بإحسانه والمسيء بإساءته. قال اليهودي: قد فهمتُ ما قلتَ وعلمتُ ما وصفتَ.

قال المجوسي: فما الذي منعك من أن تتعظ بما سمعت؟ قال اليهودي: اعتقادٌ نشأت عليه ومذهبٌ تربيت به، وصار مألوفًا معتادًا كالجبلّة بطول الدأب فيه، واستعمال أبنِيته،[٢١] اقتداءً بالآباء والأجداد والمعلمين من أهل ديني [ومن أهل] مذهبي، وقد صار ذلك كالأسِّ الثابت والأصل النابت، ويصعب[٢٢] ما هذا وصفه أن يُترك ويُرفَض ويُزال، فرحمه المجوسيُّ وحمله معه حتى وافى المدينة وسلَّمه إلى أوليائه محطمًا موجعًا، وحدَّث الناس بحديثه وقصته فكانوا يتعجبون من شأنهما زمانًا [طويلًا].

وقال بعض الناس للمجوسيِّ [بعدُ]: كيف رحمته بعد خيانته لك، وبعد إحسانك إليه؟ قال المجوسي: اعتذر بحاله التي نشأ فيها ودأب عمرَه في اعتقادها وسعى لها واعتادها، وعلمتُ أن هذا شديد الزوال عنه وصدقتُه ورحمته، وهذا مني شكرٌ على صنع الله بي حين دعوته عند ما دهاني منه، وبالرحمة الأولى أعانني ربي، وبالرحمة الثانية شكرتُه على ما صنع بي.

هذا كله سردناه لسبب الأمر الذي يبدو من غير جَنان، والعارض الذي يبرز من غير توهُّم.

وأبو سليمان يقول: الأمور مقسومةٌ على الحدود الطبيعية والقوى النفسية والبسائط العقلية والغرائب الإلهية. فبالواجب ما كان ها هنا مألوفٌ له نسبةٌ إلى الطبيعة، ونادرٌ له نسبةٌ إلى النفس، وبديعٌ له نسبةٌ

إلى العقل، وغريبٌ له نسبةٌ إلى الإله، والفلتات في الأحوال من هذا القبيل، أعني ما يتخلَّل هذه المراتب.

فقال [له] البخاري: أيقال لما يصدر عن الإله فلتة؟ قال: بحسب مصيره إلينا ووصوله إلى عالمنا، لا بحسب صدوره عن الباري، فليس هناك هذا و[لا] ما يشبهه، لأن هذه السمات لحِقت المركَّبات، من الأوائل المزدَوِجات،(٢٣) والثواني المكرَّرات، والثوالث المحقِّقات، والروابع المتمِّمات، والخوامس المدبِّرات، والسوادس المضاعَفات، والسوابع الظاهرات، والثوامن المعقِّبات، والتواسع العاليات، والعواشر الكاملات، وما بعد العواشر داخلٌ في المكرَّرات.

قال له البخاري مستزيدًا: أكان(٢٤) التوفيق من الاتفاق؟ فقال: هما يتوحدان من وجه ويفترقان من وجه، فوجه توحدهما أن الاتفاق وليد التوفيق والتوفيقَ غاية الاتفاق، ووجه افتراقهما أن الاتفاق يبرز إلى الحس وأصحابه يشتركون في التعجب منه والاستطراف له. والتوفيق يُستَر عن الحس ولهذا لا تُسلك(٢٥) مسالكه. وأما الوفاق والموافقة والتوفيق والاتفاق فمتلابسة المعاني، ولمَّا لم يكن بين المعنى والمعنى مسافةٌ محصَّلةٌ(٢٦) حُسب هذا في حيِّز هذا، وعُدَّ هذا في جملة هذا.

وقال – أبقاه الله وأدام أيامه: ما اليُمن والبركة والفألُ والطِّيَرة وأضدادها؟

فكان الجواب: إن اليُمن عبارةٌ عن شيء يبشَّر به [ويُبتغى][٢٧]ويراد، ويقال: فلانٌ ميمون الناصية، وميسور الناصية، أي هو سببٌ ظاهرٌ في نيل مأمول وإدراك محبوب، واشتقاقه من اليَمين وهو القوة، ولذلك يقال لليسار شِمالٌ لأنها أضعف منها، وتُسمَّى أيضًا الشُّؤْمَى، ويقال: يُمِنَ فلانٌ عليهم وشُئِم، وهو ميمونٌ ومشئوم. جُعل الفعل على طريق ما لم يُسمَّ فاعله، لأنه شيءٌ موصولٌ به من غير إرادته واختياره. وإنما نزعوا إلى قولهم: فلان مشئوم ليكون الفعل واقعًا به – أعني المكروه – وإلا فهو شائمٌ في الأصل. ويقال: شأَم فلانٌ قومَه، وكذلك يَمَنَهم. وكأنهما قوتان علويتان تصحبان مزاجين مختلفين، وإذا اعتِيد منهما هذان العرَضان اللذان يصدُران عن هاتين القوتين العلويتين، قيل: فلان [كذا] وفلانٌ كذا.

وأما البركة فهي النماء والزيادة والرفع، من حيث لا يوجد[٢٨] بالحس ظاهرًا مكشوفًا يشار إليه، فإذا عُهِد من الشيء هذا المعنى خافيًا عن الحس قيل: هذه بركة، واشتقاقها من البروك وهو اللزوم والسَّعَة، ومن ذلك: البِرْكة. والبرَكة يوصف بها كل شيء وليس لضدها اسمٌ مشهور، لذلك يقال: قليل البركة.

وأما الفأل ففُسر بأنه جريان الذكر الجميل على اللسان معزولًا عن القصد، إما من القائل وإما من السامع. وقد سمع النبيﷺ– لمَّا نزل المدينة على أبي أيوب الأنصاري – أبا أيوب يقول لغلامٍ له: يا سالمُ يا

غانم، فقال لأبي بكر: «سلمت لنا الدار في غُنم إن شاء الله.» وهذا مشهورٌ بين الناس.

وضدُّه الطِّيَرة والإشعار. [٢٩] ويُروى أنه نَهى عن الطيَرة وكان يحب الفألﷺ. وليس لهما عللٌ راتبة، ولا أسباب موجبة، ولا أوائل معروفة، ولهذا كُره الإفراط في التطيُّر والتعويل على الفأل، لأنهما أمران يصحان ويبطلان، والأقل منهما لا يميَّز من الأكثر، وللمزاج من الإنسان فيهما أثرٌ غالب، والعادة أيضًا تعِين، والوَلوع يزيد، والتحفظ مما هذا شأنه شديد. ولقد غلب هذا حتى قيل: فلانٌ مدوَّر الكعب، وفلانٌ مشئوم، وحتى تعدَّى هذا إلى الدابة والدار والعبد. وكل هذا ظهر في هذه الدار حتى لا يكون للعبد طمأنينة إلا بالله، ولا سكونٌ إلا مع الله، ولا مطلوبٌ إلا من الله. ولهذا عزَّ وجلَّ يُطلِع الخوف من ثنية الأمن، ويسوق الأمن من ناحية الخوف، ويبعث النصر وقد وقع اليأس، ويأتي بالفرج وقد اشتد البأس. وأفعال الله تعالى خفيَّة المطالع، جلية المواقع، مطوية المنافع، لأنها تَسري بين الغيب الإلهي والعِيان الإنسي. وكل ذلك ليصحَّ التوكل عليه، والتسليم له، واللِّياذ به، ويعرِّج على كنف ملكه، ويُتبوأ مَعَانُ[٣٠] خُلده، ويُنال ما عنده بطاعته وعبادته.

فقال الوزير– كبت الله أعداه، وبلغه مناه: هذا كلامٌ ليس عليه كلام، أرى النعاس يخطب إلى عينيَّ حاجته، وإذا شئت فاجمع لي فِقرًا من هذا الضرب الذي مرَّ من حديث الطِّيَرة والفأل والاتفاق.

هوامش

(١) يريد بالاتفاق الأمور التي تحدث بالمصادفة.

(٢) في «أ»: «قومودوس»، وفي «ب»: «تودورس». والصواب ما أثبتناه نقلًا عن كتب التاريخ.

(٣) في كلتا النسختين: «إينقس»، وهو تحريف.

(٤) في كلتا النسختين: «أن يزوره» بالراء، وهو تصحيف.

(٥) في كلتا النسختين: «أساطير»، وهو تحريف.

(٦) الجر: الحبل. وفي نسخة: «مجر»، وهو الحبل الذي يُجرُّ به أيضًا.

(٧) وردت هذه العبارة في كلا الأصلين مهملة أكثر حروفها من النقط، وما أثبتناه هو أقرب الوجوه إلى ما في الأصول من الرسم وما يقتضيه السياق من الكلام.

(٨) في الأصل: «وبقي»، وهو تحريف.

(٩) زبالة: بلد بالطريق من الكوفة إلى مكة.

(١٠) الملك: إنعام العجن.

(١١) الحراق: ما تقع فيه النار عند اقتداحها من خرق ونحوها.

(١٢) قد استظهرناه: أي حملناه معنا فوق أظهرنا.

(١٣) في كلتا النسختين: «نراجف»، وهو تصحيف لا معنى له.

(١٤) في كلتا النسختين: «أجزُّهم»، وهو تحريف.

(١٥) في «ب»: «كالحاجب».

(١٦) في كلتا النسختين: «نحن»، وفيه تحريف ونقص. وسياق الكلام يقتضي ما أثبتنا.

(١٧) في الأصل: «ومللنا ... ملة»، وهو تحريف.

(١٨) في كلتا النسختين: «حي» بالمهملة، وهو تصحيف. وجي: مدينة بناحية أصبهان تُسمى الآن شهرستان، وكان لليهود محلة في طرفها، فلما خربت جي بقيت محلتهم، وهي اليهودية.

(١٩) في كلتا النسختين: «في سفرة» وهو تحريف.

(٢٠) عبارة «أ»: جزاء المحسنين ويكافئ المسيئين.

(٢١) أبنيته: أي أصوله التي أبنى عليها. وفي «أ»: «بنته»، وهو تحريف.

(٢٢) في «أ»: ويعقب، وهو تحريف.

(٢٣) لعله «المتوحدات».

(٢٤) في «أ»: «فإن التوفيق»، وهو تحريف. وهمزة الاستفهام لم ترد في الأصول.

(٢٥) الذي في كلتا النسختين: «فلهذا لا يسأل مالكه».

(٢٦) في «أ»: «خاصة».

(٢٧) في «أ»: «ما يراد ويبتغى».

(٢٨) لا يوجد: أي النماء وما عطف عليه.

(٢٩) لم نجد فيما راجعناه من كتب اللغة التي بين أيدينا من ذكر الإشعار بهذا المعنى الذي أراده المؤلف هنا، غير أن المراد به يتضح مما نقلناه عن

اللسان في [الجزء الثاني – الليلة الثامنة والعشرين – حاشية رقم ٣] من قصة عمر مع رامي الجمار وتطيُّر الرجل اللهبي بما حدث، فانظرها ثَم.

(٣٠) المعان: المنزل.

الليلة الثامنة والعشرون

وعُدْتُ ليلةً أخرى وقرأتُ عليه أشياء من هذا الفن، منها:

عَقَد هشام بن عبد الملك لسعيد بن عمرو الجُرَشيِّ أيام الترك، فقال سعيد: يا فتح، يا نصر، خذا اللواء. فقال هشام: أعمدًا قلتَ هذا؟ قال: لا، ولكنهما غُلاماي دعوتهما. قال هشام: هو الفتح والنصر إن شاء الله. وكان ذلك كذاك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَعْرِض، فمر به حية بن نكَّاز، فقال: لا حاجة لنا في هذا، هذا حية وأبوه يَنْكُز.[(١)]

ورمى رجلٌ الجمار فأصاب صلعة عمر بحصاةٍ فشجَّه، فقال رجل: أُشْعِرت يا أمير المؤمنين،[(٢)] لا يقوم عمر هذا المقام أبدًا. فكان ذلك كذلك.[(٣)]

وخرج رجل ينظر الحسن بن علي صلوات الله عليه فلقي رجلًا فقال له: ما اسمك؟ قال: عِقال. قال: ابنُ من؟ قال: ابن عَقِيل. قال: من بني مَنْ؟ قال: من بني عُقَيل. قال: عقَلْته عقَلَك الله.

هذا الجزء أيها الشيخ – أبقاك الله ما تمنيت البقاء – هو الجزء الثاني، والثالث يتلوه، والظن الجميل بك يعدنا بالحسنى منك، وقد

علمت الغرض في جمع هذا كله والتعب فيه، وأرجو ألا يخيب الأمل ولا يبور العمل، وإن كان ذلك لا يخلو من بعض الخلل والزلل. فإذا أخذتَ بحكم الفضل الذي هو عادتك وديدنك مع الصغير والكبير والقريب والبعيد؛ فاز قِدْحي، وصدق نَوْئي، وصح زجْري وفألي. حرس الله نفسَك، وصان نعمتك، وكبت كل عدوٍّ لك.

هوامش

(١) ينكز: من النكز، وهو لسع الحية بأنفها، ومنه أُخذ اسم هذا الرجل «نكاز»، كما أن النكاز نوع من أخبث الحيات.

(٢) في «أ»: «أم المؤمن»، وهو تحريف.

(٣) وردت هذه القصة في اللسان مادة (شعر)، ونصها: «أن رجلًا رمى الجمرات فأصاب صلعته بحجر فسال الدم. فقال رجل: أُشْعِر أمير المؤمنين. ونادى رجل آخر: يا خليفة. وهو اسم رجل، فقال رجل من بني لهب: ليقتلن أمير المؤمنين. فرجع فقُتل في تلك السنة. ولهب قبيلة من اليمن فيهم عيافة وزجر. وتشاءم هذا اللهبي بقول الرجل: أُشعر أمير المؤمنين، فقال: ليقتلن. وكان مراد الرجل أنه أُعلم بسيلان الدم عليه من الشجة كما يُشعَر الهدي إذا سيق للنحر. وذهب به اللهبي إلى القتل لأن العرب كانت تقول للملوك إذا قُتلوا: أُشعِروا، وتقول لسوقة الناس: قُتلوا. ولما قال الرجل: أُشعر أمير المؤمنين، جعله اللهبي قتلًا فيما توجه له من علم العيافة، وإن كان مراد الرجل أنه دمي كما يدمى الهدي إذا أُشعر. وحقت طيرته، لأن عمر رضي الله عنه لما صدر من الحج قُتل.» والإشعار: الإدماء بطعن أو رمي أو وجءٍ بحديدة. ا.هـ.



الفهرس